

المجموعة الثانية
العدد ٦٠

السنة السابعة عشرة
رمضان ١٣٩٢ — اكتوبر ١٩٧٢

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

« قرآن كريم »

بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة التحرير

يصدر هذا العدد من مجلة « رسالة الإسلام » وقد أتمت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية منذ تأسيسها : خمسة وعشرين عاما ، من عمرها المديد بإذن الله ، في خدمة المسلمين ، وجمع كلمتهم ، والتوحيد بين صفوفهم . ومن حقها في هذه المناسبة الكريمة أن تحتفل بما يسمى : العيد الفضى ، كما تفعل الجمعيات والجماعات ، ولو احتفلت لم يكن في احتفالها بذلك ما يعاب ، ولجرت مع العرف المتبع لدى الناس .

لكن الجماعة رأت أن تعدل عن هذه الصورة ، لأنها منذ نشأتها لم تحفل بهذه الشكليات ، التي هي في الأعم الأغلب خداع للأبصار ، وانصراف عن الجدية ، ومنذ نشأتها و وكْـدُ رجالها إفناء ذواتهم في العمل الصامت الدائب ، لرفع شأن المسلمين ، وبث روح المودة والتراحم بين طوائفهم ، ولم شملهم ، وإزالة ما قد يكون بينهم من نزاع « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

لقد كان أول من دعا إلى تأليف هذه الجماعة : العالم الحجة المجتهد ، الأستاذ محمد تقي القمي ، منذ قدم مصر في أوائل الأربعينات ، والتقى بصفوة رجالها وخيرة مفكريها الإسلاميين ، وكان التقريب بين الطوائف الإسلامية شغله الشاغل ، عاش معه ، وحمل لواءه ، وجاهد في سبيله ، وبذل ما يملك من قوة مادية ومعنوية في الدعوة إليه ، والتعريف به ، وجمع السادة الأعلام من علماء السنة والشيعة على كلمته . وما زال أبقاه الله للمسلمين ، يرعى فكرته ، ويتعهد غرسه ، ويوفر إقامته وأسفاره على كل ما يحقق أهداف التقريب ، ويكسب النجاح لدعوته .

ويمكننا أن ندرك مبلغ هذا النجاح ، ونقدره قدره ، إذا عرفنا أن هذه الدعوة المؤمنة الصحيحة ، قوبلت في مطلعها - ممن لم تحسن نواياهم - بالعداوة والبغضاء ، ورميت منهم ورمى المقبلون عليها بالتهم والظنون ، وتألب عليها الفريقان اللذان يراد التقريب بينهما ، وتبصير كل منهما بحقيقة الآخر وما يكن لصاحبه من أخوة ومودة ، فقد تشكك السنيون في دعوة يعنى بها ويقوم على أمرها شيعي ، وتشكك الشيعيون في دعوة يحيط بالداعي الشيعي إليها سنيون ، يفرض أنهم أعداء الشيعة ، وأبعد الناس عن القول بما يقولون .

لقد كان ذلك من عجائب الأمور ، وكان حريا أن يميت الدعوة فى مهدها ، ويحول بينها وبين الوصول إلى أفئدة المسلمين . لكن الجماعة خرجت على الناس منذ نشأت ، سافرة مسفرة صريحة ناصعة ، باطنها كظاهرها ، وسرها كعلانيتها ، وليلها كنهارها ، وسارت فى طريقها المستقيمة ، بعيدة عن الإعلانات الشخصية ، وعن الدعاية أو الزلفى لكائن من الناس مهما يكن شأنه « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » وكان لذلك كله أثره الفعال فى نفوس المخلصين من المؤمنين ، الحريصين على تعريف المسلمين بما صنعه أعداؤهم ، ووضع الحقائق أمام أعينهم ليتصوروا حال أنفسهم ، وما صاروا إليه من تفرق أدى بهم إلى حضيض الشقاء ، فيعملوا على ما يخلصهم مما انزلقوا إليه .

ومن أجل هذا المنهج الذى التزمته الجماعة ، منذ أعلنت إلى العالم الإسلامى بيانها الذى أقرته فى أول جلسة عقدتها : فى ظل الإسلام وتحت راية القرآن : وهو البيان الذى نشرته هذه المجلة فى أول عدد أصدرته من ربع قرن مضى . من أجل هذا المنهج أقبل أنصار التقريب أفواجا على دعوته البريئة المبرأة ، وانحاز إليها جمهرة من كبار العلماء وأعلام أهل الرأى والمفكرين من أهل السنة ، ومن الشيعة الإمامية ، والزيدية . من كل بلد يدين أهله بالحنيفية السمحة .

ولعل من أكبر عوامل نجاح الدعوة ما عرفه الفريقان : السنيون ، والشيعيون من أنه لا يوجد سبب للتفرقة بين الإخوة المسلمين ، فهم جميعاً يؤمنون بالله ربا ، وبأصول الإسلام التى لا يسع مسلماً إنكارها ، وأنه لا خلاف بينهم إلا فى الفروع الفقهية ، التى لا بد من وقوع الاختلاف فيها ، حتى فى المذهب الواحد عند أحد الفريقين . وهو خلاف توسع ورحمة .

أما بعد ؛ فلقد كان التقريب أمنية غالية عزيزة ، يتطلع إليها خاصة الأمة منذ القديم ، فى شوق ولهفة . لجمع كلمة المسلمين ، الذين جاء دينهم بالوحدة ، وبالتوحيد « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، « وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

ولعل فى متابعة الدعوة إلى التقريب ، والحفاظ عليها ، وتحقيق أغراضها ، وتبصير المسلمين بها ، فى كل مناسبة ، ما يعد أعظم احتفال بعيدها الحالى ، وبكل عيد يجىء بعد إن شاء الله تعالى « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

على الجندى

تفسير القرآن الكريم

سورة الأنعام

والأهداف الأولى للإسلام

— ٣ —

الوحى والرسالة ـ سر إنكارهما ودليل ثبوتهما ـ مواضع هذا الدليل فى القرآن الكريم ـ المناقشة فى الوحى فرع الإيمان بالله ـ شبهتان قديمتان للمنكرين : الاستبعاد ـ الاكتفاء بالعقل ـ الشبهة الأولى بلسان المنكرين المعاصرين ـ الرد عليها ـ الشبهة الثانية بلسان المنكرين المعاصرين ـ الرد عليها ـ القرآن يثبت نبوة محمد والأنبياء قبله ـ سر الاكتفاء بدليل إجمالى ـ أسلوب السورة مع المنكرين تلقينى إنذارى ـ سورة الأنعام وبيان الحقيقة فى شأن الرسول ـ مهمة الرسول تنحصر فى التبشير والإنذار ـ إنما يستجيب الذين يسمعون ـ إرشاد الرسول إلى المسلك القويم مع المخالفين والموافقين ـ تسلية الرسول .

الوحى والرسالة :

كما تحدثت سورة « الأنعام » عن الألوهية والربوبية ، ولفتت الناس إلى مظاهرهما فى الخلق والتصرف والتدبير المحكم ؛ تحدثت عن حقيقة ثانية تنبنى على الإيمان بهذه الحقيقة الأولى : ذلك أن من شأن الإله الرب أن يهدى عباده ويرشدهم إلى ما تصلح عليه أمورهم ، وتقوم عليه سعادتهم فى دنياهم وأخراهم ، فإن ربوبيته ـ جل شأنه ـ ليست قاصرة على ما هيأ من أسباب الحياة المادية ، وإنما هى ربوبية ذات آثار معنوية روحية كذلك ، ولعل هذا هو المعنى المراد فى قوله تعالى : « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » فإعطاؤه الخلق كل شىء هو مظهر النعم المادية التى أنعم بها عليهم ، حيث سخر لهم مافى السموات وما فى الأرض ،

وهدايته هي مظهر النعم الروحية التي تفضل بها عليهم، حيث وهبهم العقل وأسبابه العلم، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وسن لهم الشرائع.

عُنيت سورة « الأنعام » بهذه الحقيقة، كما عُنيت بالحقيقة الأولى، فتحدثت في كثير من آياتها عن الوحي والرسالة من جوانب شتى، بعضها يتصل بإثبات الوحي وبيان حكمته والرد على منكريه، وبعضها يرجع إلى بيان ما هو من وظيفة الرسول، وما ليس من وظيفته، وبعضها يتصل بموقف الناس أمام الرسالات الإلهية، وبعضها يتعلق بالآداب التي رسمها الله للرسول، وما ينبغي أن يكون عليه سلوكه مع مخالفيه وموافقيه.

ومن الخير أن نعرض لهذه الجوانب التي عرضت لها هذه السورة الكريمة، متعرفين إلى أسلوبها الذي عالجتها به، منتفعين بهديها فيه.

سر إنكارهما ودليل ثبوتهما:

فمن ذلك أنها لخصت قضية الوحي والرسالة في صدر آية من آياتها، هي الآية الحادية والتسعون، يقول جل شأنه: « وما قدَرُوا الله حقَّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » فهذه الجملة على وجازتها تشتمل على ما يأتي:

(١) تسجيل كفر الكافرين بهذا الشأن الإلهي الذي هو إنزال الوحي على البشر.

(٢) الإشارة إلى شبهتهم الأساسية التي يتوارثونها خلفاً عن سلف في إنكار هذه الحقيقة، وهي استبعادُهم حصول ذلك، أو زعمهم إغناء العقل عنه.

(٣) إجمال الدليل الذي يُردّ به عليهم، وهو دليل صالح لكل عصر، ولكل ثقافة، لأنه دليل عقلي فطري فيه ذكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

مواضع هذا الدليل في القرآن الكريم:

ولعل من المفيد أن نذكر في هذا المقام أن هذه العبارة: « ما قدروا الله حق قدره » جاءت في ثلاثة مواضع من الكتاب الكريم:

الموضع الأول : هذا الموضع من سورة الأنعام ، وقد أتبعت بقوله تعالى : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » وهو مقابلة لسلبهم العام حيث قالوا : « ما أنزل الله على بشر من شىء » بالإثبات الجزئى لرسالة مشهورة معروفة ، وفيه بيان لوجه الحكمة فى الإيحاء بهذه الرسالة ، حيث قصد بها أن تكون نوراً وهدى للناس ، ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » وهى إشارة إلى حاضر شاهد بين أيديهم ، مصدق لما سبقه ، مع بيان الغاية منه ، والحكمة فى إنزاله ، وهى إنذار أم القرى ومن حولها .

والموضع الثانى : هو قوله تعالى فى سورة الحج : « ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ، الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير » وفى هذا الموضع جاءت العبارة نفسها معقبة بإثبات قوة الله وعزته ، وأن اصطفاء الله الرسل من الملائكة ومن الناس شأن من شئونه .

والموضع الثالث : قوله تعالى فى سورة الزمر : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » وفى هذا الموضع تفصيل لبعض مظاهر القوة والعزة التى أثبتت لله بجملة فى الموضع الثانى ، ثم ينتهى الكلام بذكر المجىء بالنبيين والشهداء والقضاء بين الناس بالحق .

وهكذا تتلاقى العبارة التى صدِّر بها الكلام فى هذه المواضع الثلاثة : « وما قدروا الله حق قدره » مع ما جاء تالياً لها فى كل موضع ، ويكون هذا التلاقى على معنى واحد مشترك هو إثبات أن الله يوحى ، لأنه قادر قوى ، ولأنه حكيم عليم .

المناقشة فى الوحى فرع الإيمان بالله :

بعد إجمال القول فيما تفيده هذه الجملة ، نتبعه بشيء من التفصيل فنقول :

إن قضية الوحى والرسالة من القضايا العويصة التى شغلت الناس قديماً وحديثاً ، لما لها من أهمية قصوى فى حياة البشر ، إذ يترتب عليها مبدأ الإيمان بالأديان ، فيعترف أهل الأرض بتوجيه السماء ، أو مبدأ « اللادينية » التى لا تعترف بهذه الصلة ولا ترتبط بها ، وترى أن الإنسان سيد نفسه ، وسيد هذا الكون الذى يعيش على ظهره . لا يتلقى فى شأن من شئونه وحياً إلا من عقله وتجاربه .

ومن الواضح أن هذه القضية تأتى فى الترتيب العقلى بعد الإيمان بالألوهية ، فمن آمن بأن للوجود إلهاً مستحقاً للعبادة متصفاً بصفات الكمال والتنزيه ؛ أمكن أن يناقش فى الوحى والرسالة ، إذ الرسالة تقتضى وجود « المرسل » والوحى يقتضى وجود « الموحِى » وإذا انتفى الإيمان بمصدر الوحى والرسالة ، فالكلام فيهما عبث لا طائل تحته .

وقد علمنا فى الفصل السابق أن الناس فى قضية الألوهية صنفان : صنف جاءه الضلال من أنه أشرك مع الله آلهة أخرى ، فهو معترف بالله ولكنه يرى نفسه أقل من أن يتصل به مباشرة ، فهو يعبد الشركاء ليقربوه إلى الله زلفى ، وصنف أبعد من هؤلاء فى الضلال ، وهم الذين ينكرون الإله ويزعمون أن هذا الكون وجد بدون موجد ، وأنه يسير بنفسه دون مدبر ولا مصرف .

وعلمنا أن القرآن الكريم يثبت « الألوهية » بإثبات مظاهر « الربوبية » وأن هذا الإثبات يصلح للصنفين جميعا ، فهو يصلح للذين يتخذون مع الله إلهاً آخر ، حيث يفيدهم أن الرب الذى « خلق » و « جعل » - أى أنشأ وصرف - واحد ، فيجب أن يكون هو وحده المستحق للعبادة والطاعة ، وهو يصلح أيضا لمنكرى الربوبية إطلاقاً ، من حيث إنه يناشد فطرتهم الكامنة ، وعقولهم التى لا يمكن أن تتقبل محض المصادفة التى يزعمونها مع هذا الخلق الكامل ، والتدبير المحكم ، والشواهد الناطقات .

والصنف الثانى مع هذا قلة من الناس فى كل عصر ، لا يؤبه لهم ، ولا يمكن أن يناقشوا أو يساق لهم دليل غير الدليل الكونى الذى يصرّون على إنكاره ، فلا حيلة فيهم غير تركهم وإهمالهم حتى تقرعهم القوارع التى تهذب نفوسهم وعقولهم فتوجههم إلى تدبر الآيات والبينات ، أو حتى تنقضى حياتهم فيعودوا إلى ربهم فيعترفوا بما كانوا يجحدون .

لهذا كله بنيت جميع العقائد الدينية وأدلة إثباتها على الأساس الأول والحقيقة الكبرى ، وهى وجود الله الخالق المتصرف المستحق للعبادة والطاعة ، ومن بين هذه العقائد ، أو هذه الحقائق ، حقيقة الوحى والرسالة ، فالبحث فيها مبنى على الإيمان بالله ، وبما له من صفات الكمال والتنزيه .

وعلى هذا الأساس جادل الناس قديماً وحديثاً فى قضية الوحى والرسالة ، وجودلوا فيها .

شبهتان قديمتان للمنكرين : الاستبعاد :

والقرآن الكريم يبين لنا فى كثير من آياته أن هناك شبهتين قديمتين يقوم عليهما دائماً إنكار المنكرين :

إحداهما : أن ذلك مستبعد أو مستحيل ، إذ كيف يتصور العقل فى زعمهم أن يتصل الخالق بالمخلوق فيوحى إليهم بأمره أو كلامه ، فالخالق له صفات التى منها تنزهه عن المكان والصوت ، والمخلوقون لهم صفاتهم التى منها أنهم محدودون قاصرون لا يستطيعون أن يتلقوا الكلام والأمر إلا من مثلهم ، وقد جوبهت الرسالات الإلهية بهذه الشبهة منذ العهود الأولى ، فنوح يقول لقومه : « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون » . وهود يقول لقومه عاد هذه العبارة نفسها : « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم » والملأ الكافرون من قوم صالح يقولون للذين آمنوا به : « أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون » وهكذا كل رسالة . حتى ليقول القرآن الكريم

فى الرسل عامة : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » . « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا » ويقول فى شأن خاتم النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس » . « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » . « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . . . الخ .

وقد جاء هذا الإنكار المبنى على الاستبعاد فى سورة الأنعام حيث تقول : « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك . . . » . « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » . « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » إلى غير ذلك من الآيات .

الاكتفاء بالعقل :

الشبهة الثانية : أن الله تعالى وهب الإنسان العقل ، فهو كاف لهدايته وإرشاده ، وليس بالناس معه من حاجة إلى وحى أو رسول ، هكذا يزعمون .

والقرآن الكريم يشير إلى هذه الشبهة من شبه المنكرين فيما يبينه من حكمة إرسال الرسل فى مثل قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » . « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » . « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم » .

ومن ذلك فى سورة الأنعام قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا » . « ثم آتينا موسى

الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ، أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة » .

بعد هذا يسهل علينا أن نفهم أن قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » فيه بيان لإنكار المنكرين ، وذلك مصرح به فى قولهم : « ما أنزل الله على بشر من شىء » وفيه بيان لأن سبب هذا الإنكار أنهم لم يقدروا الله حق قدره ، حيث كان منهم من استبعدوا هذا على قدرة الله ، مع أنه غير مستحيل بل ممكن ، وكان منهم من نازعوا فى أنه أمر تقتضيه الحكمة ، مع أنه هو عين الحكمة والمصلحة والرحمة ، وفيه إجمال للدليل الذى يرد به عليهم ، حيث يفهم منه أنهم لو قدروا الله حق قدره - أى عرفوه حق معرفته ، وأدركوا مدى قدرته وحكمته - لما نازعوا فى هذه القضية .

الشبهة الأولى بلسان المنكرين المعاصرين:

بعد هذا يحسن بنا أن نقف وقفة يسيرة مع المنكرين لهذه الحقيقه الإلهية من ملحدى عصرنا ، لنعرف فى أى واد يهيمون ، وكيف ننتفع بما أرشدنا الله إليه من هذا الدليل الفطرى فى الرد عليهم ، والتحذير من فتنهم وما يثيرون من شكوك .

إنهم يصورون الوحى تصويراً علمياً كما يزعمون ، فيقولون : إن النبى ما هو إلا إنسان مفكر له عقلية تخالف عادة عقلية أهل عصره ، وهو لا يظهر إلا فى عصور الفساد والضعف والبغى والطغيان ، فيثور فى نفسه على هذه الأوضاع ، ويشتد مقته لها وتأمله فى طريقة التخلص منها ، ثم يفضى به ذلك التأمل العميق ، والتفرغ الطويل ، الى حالة يعتقد معها أن العناية الإلهية لا يمكن أن تدع أمور الناس تجرى هذا المجرى ، وأنه لا بد للناس من منقذ ، ثم ينتقل الى مرحلة أخرى

هى مرحلة التطلع الى أن يكون هو هذا المنقذ ، ثم الى مرحلة الاعتقاد بأنه اختير فعلا لهذه الرسالة ، وتمتلىء نفسه بهذه العقيدة حتى يتصور أنه يسمع فيها وحياً ، وأن ملكا يغاديه بها ويراوحه ، وهو ليس بكاذب فيما يروى عن هذا الملك ، لأن خياله يجسم له الأمر ولا يترك عنده ذرة من الشك فيه ، ثم يستغرق فى اعتقاد ذلك حتى يثبت فى نفسه ، ويوجه إرادته وجميع قواه الى تحقيق ما اعتقد أنه رسالته التى بعث بها ، ويجد الى جانبه من يؤمن به ويصدق كل ما يرويه عن عالم الغيب ، ويخضع لأمره ونهيه ، ويزداد هؤلاء المؤمنون يوماً بعد يوم ، وتقوم إلى جانبهم معارضة فتقويهم وتجعلهم يتكاتفون حوله مخلصين غير مترددين ولا شاكين فى أنهم على الحق ، فهذا هو ما يسميه الناس وحياً ورسالة ، وهذا هو تصوير العلم - يريدون علم النفس وما له من قواعد - .

الرد عليها :

ومن الواضح أن هذا الذى يذكرونه ما هو إلا ظنون ومزاعم لا تستند إلى دليل عقلى تطمئن إليه القلوب ، ويرضاه المنصفون المحايدون ، وأن الذى حملهم على ذلك هو استبعاد إنزال وحى من الله على من يصطفى من عباده ، فهى نفس الشبهة التى كانت تراود سلفهم من أهل الشك والإنكار فى عهود الرسالات وبعدها ، غير أنهم فلسفوها والتمسوا الفروض لها والتعليل لأسبابها ودوافعها ، كأنها ظاهرة من الظواهر المادية التى تعودوا أن يطبقوا عليها هذا المنطق الخيالى الفرضى .

سبيلنا فى الرد على هؤلاء وبيان باطلهم أن نحجهم بما حج الله به المنكرين قبلهم ، فنقول لهم : على أى أساس بنيتم هذا الاستبعاد الذى أفضى بكم إلى التماس العلل والفروض ؟ وأىُّ بُعد فى أن يوحى الله الى أحد من خلقه بوحى ؟ وهل كل ما غاب عنا إدراكه وعجزت حواسنا عن تفهمه تنكره عقولنا ؟ إننا نكتشف كل يوم أسراراً فى هذا الكون ما كنا من قبل نتصورها ، ثم تصبح على غرابتها أموراً معروفة مألوفة ، وإننا نرى الهبات الإلهية لا تقف عند الحد الذى تقبله ادراكاتنا

المحدودة ، فكم رأينا من عباقرة أفذاذ لا نظير لهم فى بيئاتهم ، ولا يجود التاريخ بمثلهم إلا فى الحين بعد الحين ، وكم رأينا من أفراد أوتوا قدرة عجيبة فى ناحية من النواحى لا تعرف أسبابها ، وأنا قد رأيت بنفسى غلاماً من إحدى قرى « البحيرة » فى مصر ، كانت له موهبة حسابية عجيبة ، فهو يستطيع - مع أنه عامى جاهل - أن يستخرج حاصل ضرب عددين كل منهما مؤلف من عشرة أرقام فى وقت يسير ولا يخطىء فى ذلك ، ويقال له إن فلاناً ولد فى ساعة كذا من يوم كذا من عام كذا ، فما عمره بالدقائق فيجيب الإجابة الصحيحة فى نحو دقيقة ، بينما يعجز الحاسبون عن استخراج هذه الإجابة إلا بعد حساب طويل ، ولست أريد أن أقول إن النبوة والرسالة شىء من ذلك أو يشبه ذلك ، ولكن أضرب هذا مثلا لما أودعه الله الإنسان من قوى ، وما يجود به على بعض عباده من مواهب لا يعرف سرها ، ولا يدرك كنهها ، فالله قادر وهاب ، ولا حد على قدرته ، ولا مانع لما أعطى ، فهل يعجزه سبحانه أن يهىء بشراً أو ملكا بقوة فوق العادة يستطيع معها أن يتلقى عنه أو عن ملك تلقى عنه ؟ إن الذى يقول باستحالة ذلك أو باستبعاده ينسى أن خلق الإنسان وتكوينه كله عجب ، ويكفى أن يفكر الإنسان فى أنه كيف يفكر ، ليعلم أن تفكيره من أعظم الآيات على قوة خالقه وقدرته وجوده الفياض ، ثم من ذا الذى كان يظن أن فى الذرة هذه القوة الكامنة ، وأن فى بعض رمال الصحراء التى ظلت ملايين السنين مهملة تذروها الرياح ؛ ما عرف لها من الخواص وما تصلح له مما هدى الله إليه أهل العلم الحديث ، ثم من ذا الذى يعرف مدى ما يصل إليه علم الناس وقدرة الناس فى المستقبل ، وهم خلق محدود العلم والقدرة ، وفيهم يقول الله عز وجل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . « وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء » فهل يجوز أن يصدر من هذا الإنسان المحدود استبعاد شىء من الممكنات العقلية على الله ، وقد مكنه الله من الأرض ومن الحياة هذا التمكين ؟ .

وبذلك يجب استبعاد هذا الاستبعاد ، ويجب ألا ينسب للعلم أو العقل القول به ، أو الميل إليه .

الشبهة الثانية بلسان المنكرين المعاصرين :

ولننظر بعد ذلك فى الجانب الآخر من الشبهة على الوحى ، فإن بعض الناس يقول إن الله تعالى خلق الانسان وألهمه العقل ليميز به الخير من الشر ، والنافع من الضار ، وما ينبغى أن يسلكه من السبل ، وما ينبغى أن يتركه ، وبالعقل ارتفع الإنسان عن مستوى الحيوان الأعجم : واستطاع على ما به من الضعف الجسمى أن يسخره ويطوعه ، كما استطاع أن يجوب آفاق الدنيا ، وأن ينفذ بنور بصيرته إلى كل شيء ، وها هو ذا قد فرغ أو كاد من الأرض وما عليها ، واتجه بآماله إلى السماء يتطلع إلى أن يعلم علمها ويدرك أسرارها ، ويقتحم كواكبها ، فماذا بقى له حتى يحتاج إلى الوحى أو يستمد الهدى من كتاب ينزل أو نبى يرسل .

هل الأرض محتاجة إلى هداية السماء وفيها هذا القبس العلوى من نور الله ، وهو العقل ؛ إن هؤلاء الذين قادوا البشرية فى عهود الظلمات وسماهم الناس الأنبياء أو الرسل ، ما هم إلا عقلاء ممتازون قد صفت جواهر عقولهم ، واتسعت آفاق تفكيرهم ، فرأوا بعين بصيرتهم ما لم يره الآخرون . ووفروا زماناً طويلا كان على الأجيال أن تقطعه حتى تصل إلى ما وصلوا إليه ، وتعلم ما علموا ، فلا شك أنهم نبغاء من نوابغ العقول ، ولا شك أن ما رسموه لأممهم هو ثمرات طيبة من أزكى الثمرات العقلية ، ولا شك أن ذلك كله هبة من السماء ، ولكن لا على معنى أن ملكا أوحى ، أو كتاباً نزل ، أو رسولا بعث ، بل على معنى أن الله وهب هذا الإنسان العقل وجعله نورا من نوره ، وما الكتاب إلا سطور من هذا النور ، وما الرسول إلا العقل فهو للناس بشير ونذير .

الرد عليها :

هكذا يقول منكرو الوحى اكتفاء بالعقل ، وبتعبير أدق : هذا ما يمكن أن يقولوه ، أو مايعبر به عن شبهتهم ، فهل أصابوا شاكلة الصواب ؟ كلا إنهم أحسنوا الظن بالعقل الإنسانى حتى جعلوه رسولا هادياً ، وقبساً منيراً ، وجعلوا أثره كتاباً وافياً ، ودستوراً شافياً ، وهذا إيمان بالعقل ، وإن العقل لجدير بأن يكرَّم حقاً ،

وبه كان تكريم الإنسان ، ولكننا شهدنا كيف تختلف العقول وتتفاوت ، وكيف يرى بعضها الشيء خيراً ويراه بعضها شراً ، وكيف تختلف لديها موازين الفضيلة والرزيلة ، وكيف تتحكم فيها الأهواء والشهوات ، فتلوّن أحكامها ، وتؤثر فى إدراكها للأمور ، وكيف يعميها التعصب فترى الحق باطلا والباطل حقا ، وكيف تخدعها العادة المألوفة كما تخدع الحواس الظاهرة ، فتخيِّل لها الأوهام حقائق ، فهل يترك الله خلقه لعقولهم فحسب ، أو تقتضى حكمته ورحمته وربوبيته أن يهدى هذه العقول ، ويحكم على اتجاهاتها المختلفة حكمه الفاصل بين ما هو رشد وما هو غىّ فى ثوب رشد ؟ هل يترك الله الإنسان لعقله فحسب فيصطدم الناس بعضهم ببعض فى الحقائق والأحكام والنوازل كل يحكم فيها عقله وما رآه ، ويعتقد أنه المصيب وغيره المخطىء ، وأنه المحق وغيره المبطل ، أو الخير كل الخير ، والحكمة كل الحكمة ، أن يضبط بالوحى والرسالات ما هو حق وما هو باطل ، وأن يلزم الناس حكما فصلا يدرأ الخلاف ، ويقضى على الخصومات ، ويقر الأوضاع السليمة ؟

إن الناس متساوون ، وقد ألف المتساوون ألا يخضع بعضهم لبعض خضوعا قلبيا صادقا ، فلا بد من قوة عليا يخضعون لها جميعا ، ويرضون بها جميعا ، قوة تحسم وتحكم ، وتُقبل مقاييسها ، ويرجع إليها المختلفون ، ولا بد أن تكون هذه القوة العليا إلهية ، فالإنسان خاضع للإله الذى خلقه ، خاضع له جسما ومادة وروحا . فيجب أن يكون خاضعا له توجيهاً وتشريعاً . وبغير ذلك يكون الإنسان متعديا طوره ، خارجا على طبيعته ومقتضى خلقته ، وبشريته . ولو ترك الناس لعقولهم ولم تُهد هذه العقول بالشرائع لاختلفوا اختلافا كثيراً ، ولما كادوا يلتقون على مذهب فى الحياة يدينون به ويزلون عن حكمه ، وهذه هى المذاهب الإنسانية التى ابتكرتها العقول تحير الناس ، وتقيم المشكلات ، وتعجز عن الحلول ، وتدفع الحروب المدمرة ثمرات البشرية من أرواح وأموال ومنشآت ، فهل أغنى عن الإنسان عقله ، وهل سعدت البشرية بعد انطلاقها من دائرة الدين والوحى والرسالات إلى دائرة النازية أو الفاشية أو الشيوعية أو الرأسمالية ؟ .

والخلاصة أن العقل كما يقولون جوهرة نورانية ، وهبة إلهية وهبها الله عباده وجعلهم بها أكرم خلقه ، كلُّ ذلك مسلم ولا شك فيه ، ولا ينبغى أن ينكر العقل أو يرفض حكمه ، ولكن العقل مع ذلك محدود لأنه مخلوق ، وكل مخلوق محدود ، فيجب ألا نتجاوز به حدوده ، وإلا كنا مخالفين له .

وإذن فحكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ، تقتضيان ألا يترك الإنسان لمجرد العقل ، وأنه لا بد للأرض من هداية السماء ، ولو قدروا الله حق قدره ، وعرفوه حق معرفته ، لما أنكروا هذه الحقيقة .

القرآن يثبت نبوة محمد والأنبياء قبله :

وشيء آخر فى هذا المقام يجب أن نجليه حتى ينكشف كل ظل من ظلال الشبهة على الوحى والرسالة ، فإنى لأعرف أن كثيراً من الناس تحوك فى صدورهم بعض الشبه ولا يستطيعون أن يفضوا بها ، أو يسألوا عنها ، إما حياء وإما خوفا . فمن الخير أن نكاشفهم بما فى نفوسهم لنجلوه عنهم ، ونطهر منه قلوبهم ، وبالله التوفيق .

إن بعض الناس يقول : هبنا سلمنا أن الوحى ممكن ، وأنه متفق مع الحكمة ، وأن الإنسان لا يستغنى بالعقل ، فهل هذا يدل على صدق الرسل الذين ادعوا أنهم جاءوا بالرسالات ؟ هل هذا يدل على أن موسى وعيسى ومحمدا وغيرهم كانوا رسلا فى الواقع كما ادعوا ؟ إن جواز حصول الشيء لا يستلزم أنه وقع فعلا ، فيبقى أن يقوم الدليل على أن هذه النبوات واقعة .

ونقول لهؤلاء : أما نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد ثبتت بمعجزته القاطعة الباقية التى هى هذا القرآن الكريم ، فلا يمكن لعقل من العقول أن يجوّز صدور هذا الكتاب المحكم من شخص نشأ يتيما فقيراً أمياً فى بيئة مشركة جاهلية لم تعرف بما عُرفت به الأمم الكبرى فى عصرها من العلوم والنظم ، وقد كان العالم فى عهد هذا الأمىّ اليتيم مضطربا أشد الاضطراب ، وكان رجال الأديان فيه مختلفين أشد الاختلاف ، فكانت البيئة القريبة لهذا الأمى بيئة شرك ووثنية ، وكانت البيئة البعيدة منه بيئة خلاف وتنافس على السلطتين : الدينية والزمنية ،

فمن أين له هذا الكتاب المحكم الذى اشتمل على مبادىء الإصلاح العالمى كلها ، والذى لم يستطع العلم فى أزهى عصوره أن يهدم حقيقة من الحقائق التى جاء بها ، إن القرآن الكريم قد تحدّى العرب ببلاغته وقوة بيانه فعجزوا ، وكذلك أيضاً تحدّى الزمان كله بخلوده وصحته ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتحدى الناس فى كل عصر ، فلم يستطع أحد أن يزعم أنه من وضع البشر ، اللهم إلا الذين لم يتذوقوه ولم يتدبروه ، أو الذين ينكرون الحقائق الواضحة تعصبا عليها .

وإذا ثبت بهذا الذى أجملناه أن القرآن الكريم دليل على صدق محمد ، وآية إلهية من الله للناس ، فإن جميع النبوات تثبت به : نبوة محمد ، ونبوة الأنبياء قبل محمد .

هذا إجمال ، أما تفصيل الكلام فى دلالة القرآن على صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى أنه مرسل من ربه ، فإنه يطول ، وليس هذا موضعه ، فإنما أردنا هنا أن نثبت الوحى ، وأن نبين أن ذلك يؤخذ من قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » .

سر الاكتفاء بدليل إجمالى :

وقبل أن ننتقل من هذه النقطة : ينبغى أن نتعرف السر الذى جعل القول فى دليل الوحى والرسالة يأتى مجملا مركزاً على هذا النحو ، فنقول :

أجملت سورة « الأنعام » هذه الحقائق فى صدر الآية التى ذكرناها ، وكان هذا الإجمال أسلوباً مقصوداً لم يأت عفوا ، وذلك لأن السورة قامت على أساس أنهم قوم جاحدون ، لا تجدى معهم الآيات ، ولا تنفع فى إقناعهم الدلائل ، فالله سبحانه وتعالى يقول فى أوائلها : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين . وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو

أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

فالسورة إذن أمام قوم يرفضون الدلائل فى إصرار، ويتحدون فى استكبار، ولا يعبأون بما أصاب القرون من قبلهم ، ويطلبون ما لا يمكن أن يكون ، بينما ينكرون ما هو ممكن وما هو حاصل فعلا : يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكا يؤيده وينذر معه ، بل يطلبون ـ كما فى آيات أخرى ـ أن ينزل عليهم الملك لا أن ينزل مع الرسول فحسب ، بل وصل بهم الأمر الى أن طلبوا رؤية الرب جل وعلا ، وفى سورة الفرقان تسجيل هذين المطلبين عليهم حيث تقول : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » .

وهم فى هذا متعنتون مستهزئون ، لأن الملائكة إذا نزلت كان فى نزولها نهايتهم وهلاكهم ، لأنهم لا يطيقون هذه الرؤية ولا يتحملونها بمقتضى تكوينهم البشرى ، ولهذا تقول سورة الأنعام : « ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون » وتقول سورة الفرقان : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا » .

هذا مع كونهم يستبعدون على بشر أن يؤتيه الله الوحى والنبوة ، ويعتقدون الشبهة القديمة القائلة : « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون » فهم متناقضون فى تقدير قيمة البشر ، تارة يرفعون أنفسهم إلى درجة يطلبون معها أن تنزل عليهم الملائكة أو يروا ربهم ، وتارة يقررون أن البشر أقل من أن يوحى إليهم ويتلقوا عن الله بوساطة الملك ، وإنما جاء تناقضهم من أنهم عابثون مستهزئون مصرون على الإنكار غير عابئين بما يقعون فيه من خلط ، وقد بينت السورة فى هذه الآيات أن الله تعالى لو قضت حكمته بإجابتهم إلى ما يطلبون من إنزال ملك مع الرسول ، أو جعله الرسول ملكا ، لما أنزله إلا فى صورة رجل لما ذكر

من عـدم الاستعداد البشرى لرؤية الملك على هيئته ، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر فيظنونه بشرا ، ولا يزالون يكررون طلب إرساله ملكا .

أسلوب السورة مع المنكرين تلقينى إنذارى :

إن هذا الموقف الذى يقفونه من الرسالة يستدعى ألا يناقشوا أو يجادلوا ، لأن النقاش والجدال مع المعاندين إنما هو جهد ضائع ، وعبث فى غير طائل - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ولهذا تجمل السورة دليل الوحى والرسالة هذا الإجمال الذى تحدثنا عنه ، وتسير معهم سيرة الإنذار والتوعد ، وتلقّن الرسولَ ما يقوله لهم مرة بعد مرة بلفظ : « قل » ولا تتركه يسترسل معهم فى حجاج ، أو يستمع إليهم فى اقتراح أو اشتراط ، أو يحزن لما يقولونه عنه وعن دعوته ، أو لما يؤذونه به ، أو يترقب من الله أن ينزل عليهم الآيات المؤيدة له ، أو أن يعجل لهم ما يستعجلون من العذاب ، تلازم السورة فى كثير من آياتها هذا الأسلوب ، أسلوب أمر الرسول بلفظ : « قل » حسما للأمر ، وتلقينا للرسول ما يجب أن يقول : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، قل لمن ما فى السموات والأرض ، قل لله » . « قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ، قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ، قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » . « قل أىُّ شىء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد » . « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله » . « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم » . « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله » . « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، قل لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ، قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ، قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم » إلى غير ذلك من الآيات المنذرة الملقية بالقول تلوَ القول وجوههم ،

والمفضية إليهم بالحقائق والعوقب إرهاباً لهم ، وتخويفاً لكل من سار على خطتهم ، ذلك بأنهم أهل عناد وإصرار ، واستهزاء واستكبار .

هذا هو بعض السر فى إجمال الحجة ، والاكتفاء بتقريرها موجزة مركزة ، مع توجيه الأسلوب على هذا النحو التلقينى الإنذارى الرهيب ، وسنبين فيما بعد أن لهذا الأسلوب سرا آخر يضاف إلى هذا السر .

سورة الأنعام وبيان الحقيقة فى شأن الرسول :

وننتقل بعد هذا إلى جانب آخر من الجوانب التى عرضت لها سورة « الأنعام » مما يتصل بالوحى والرسالة ، فنقول :

كما وجد فى الناس من ينكر الوحى والرسالة ، ويرى أن البشر ليسوا مستعدين لتلقى كلام الله ؛ وجد فيهم أيضاً من يسرف فى تضخيم شخصية النبى ووظيفة الرسول حتى ليكاد ينسى أنه بشر ، فتراهم ينسبون إليه علم الغيب ، وتراهم يعجبون لأكله الطعام ومشيه فى الأسواق ، وتراهم يتطلبون فيه أن يكون غنيا عنده من الخزائن ما لا ينفد ، وأحياناً يطلبون منه الإتيان بالمعجزات ، ولعلهم أيضا لا يتصورون فيه أن يغضب أو يمرض أو يحزن أو يهزم فى الحرب ، أو يردّ عن أمل من آماله ، إلى غير ذلك من العوارض البشرية .

وهكذا يقف هؤلاء من النبوة موقفاً مناقضاً تمام المناقضة للأولين الذين ينكرونها ، فبينما يغالى هؤلاء فى النبى حتى يوشكوا أن يخرجوه عن بشريته ؛ يغالى أولئك فى إنكار ما منحه الله من قوة غير عادية تمكنه من تلقى الوحى عنه ووعيه وتبليغه للناس .

والله سبحانه وتعالى يرشد عباده إلى واقع الأمر وحقيقته ، ولا يرضى منهم أن يتجاوزا هذا الواقع بالميل إلى جانب هؤلاء أو أولئك ، وقد كان لسورة الأنعام عناية واضحة بهذا الأمر ، فهى تبين شأن الرسول تارة على سبيل السلب بنفى شىء عنه ، وتارة على سبيل الإيجاب بإثبات شىء له ، وتارة على سبيل الحصر الجامع بين النفى والإثبات ، وأحياناً بتصوير ما ينتاب الرسول من العوارض

البشرية : كالحزن والألم وضيق الصدر والحرج ومحاولة المجاملة لجذب الأقوياء انتفاعا بهم ، ووشك الميل إلى بعض ما يريدون ، وأحياناً بتعليمه ما يردُّ به على المبطلين ، وإرشاده الى السلوك السليم فى معاملة المخالفين والموافقين ، وتسليته واستلال بواعث اليأس الذى يتعرض له بحكم بشريته ، إلى غير ذلك مما يريد الله به أن يبين للناس منزلة النبي وواقع أمره ، حتى لا يخرجوا به عن وضعه ، وحتى لا يخلطوا كما خلط الذين زعموا رسولهم ابن الإله ، ثم لم يكفهم ذلك حتى كان فيهم من اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

مهمة الرسول تنحصر فى التبشير والإنذار :

تقول سورة الأنعام : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ، قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ، ان أتبع إلا ما يوحى إلىّ ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

بينت هذا الآيات مهمة الرسل ، وأنها لا تتعدى التبشير والإنذار : التبشير بأن الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الذين يأمنون فلا يصيبهم خوف ، ويفرحون فلا يصيبهم حزن ، والإنذار بأن الذين كذبوا بآيات الله يصيبهم العذاب بسبب فسقهم وخروجهم عما رسم الله من حدود فى العقائد والأحكام ، فالرسول إذن لم يأت بشىء من عنده ، وإنما هو مبلغ عن الله ، معرف به ، لا مثبت ولا منشىء ، وليست له قوة وراء هذا الاستعداد للتلقى والتبليغ ، لم يعطه الله خزائنه ، ولم يجعلها عنده يتصرف فيها كما يشاء ، حتى يطمع طامع فى الانتفاع المادى عن طريقه ، أو يخاف أحد الحرمان المادى إن حاد عن هذا الطريق ، فإن حزائن الله لم تزل عند الله ، ولم تزل خاضعة لسنة خاصة من سنن الله ، فالله يعطى من أحب ومن كره ، ويغنى ويفقر لا بسبب الدين والإيمان ، ولكن بأسباب أخرى ، فليس لأحد أن يتخذ الدين والرسول وسيلة إلى أمر من الدنيا ، وليس لأحد أن ينتظر من الرسول حرمان أعدائه ومخالفيه من متاع الدنيا ،

ثم هو بعد ذلك بشر لا يعلم الغيب ، ولا يعرف ما يكون غداً : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » ثم هو لا يقول للناس إنه تخلص بالرسالة من آثار بشريته وأصبح ملكا ، وانما هو بشر مثلهم ، وكل ما يمتاز به عليهم أنه يوحى اليه ، وأنه متبع لهذا الوحى لا يحيد عنه ، فعليهم أن يفكروا فى ذلك كله بعقولهم ، وأن يتدبروا هذا الوضع تدبر المبصرين المدركين ، وألا يضلوا فيه ضلال العمى المتحيرين .

انما يستجيب الذين يسمعون :

وتقول السورة : « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء ، فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

تعلمه هذه الآيات ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن الناس ليسو سواء أمام الهدى الإلهى ، فمنهم الجاحدون الكافرون أو المعاندون الذين ينكرون الحياة الأخرى ، ولا يعترفون إلا بالحياة الدنيا ، فهم يسيرون على هذا الأساس ، ولا يتقبلون إنذاراً ، ولا يخافون عذاباً ، إن هؤلاء قد سدُّوا على أنفسهم منافذ الهداية ، فدعهم ولا تتجه إليهم ولا تحاول أن تضيع وقتك فى ترضيهم أو مجاملتهم أو النظر فى شروطهم التى يشترطونها للإيمان بك ، وتصديق الذى جئت به ـ ومنهم المصدقون الذين يخافون ربهم ، ويعلمون أن وراءهم يوماً ، وأنهم سيحشرون إلى ربهم فيسألهم ويحاسبهم ، ولا يحول بينه وبينهم أحد بولاية أو شفاعة ، وهؤلاء هم الذين يتقبلون الإنذار ، لأنهم فكروا وتدبروا فخافوا ، فلتكن عنايتك متوجهة إليهم ، وليكن حرصك مقصوراً عليهم .

وهذا المعنى الذى يذكره الله لرسوله فى هذه الآية هو إرشاد إلى سنة من سنن الله فى الخلق ، أو هو ـ بتعبير حديث ـ تعريف بخلق نفسى اهتدى إليه علماء

النفس أخيراً . ذلك أن الناس يختلفون من حيث تقبل الأفكار والتنكر لها ، وأن ذلك يرجع أحياناً فى نفس المنكر الى عقدة خفية تجعله يرفض قبول ما يساق إليه ، ولو كان بادى الصحة مؤيداً بالدليل والبرهان ، وقد تكون هذه العقدة استكباراً فى النفس ، لأن غيره تقبله قبله ، أو لأن الذى تقبله أقل منه مركزاً ، أو لأن فى قبوله تقيداً بما لا يحب أن يتقيد به ، أو تركا لما لا يحب أن يتركه ، إلى غير ذلك ، وهذا هو الذى عناه القرآن بمثل قوله : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » أما الذين يتقبلون فإن نفوسهم خالية من هذه العقد ، أو لهم قوة عقلية ، وشخصية مؤثرة تجعلهم يتغلبون على عوامل التردد والهوى الخفى فى أنفسهم ، وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن بمثل قوله : « هدى للمتقين » ، « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب » وقد جاء فى سورة الأنعام من هذا غير الآية التى نتحدث عنها قوله تعالى : « إنما يستجيب الذين يسمعون » ، « وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ، وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ، أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » .

إرشاد الرسول إلى المسلك القويم مع المخالفين والموافقين :

وقوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم » الخ . نهى للرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن الاستجابة إلى ما كان يطلبه إليه المستكبرون من إبعاد الفقراء والضعفاء الذين اتبعوه ، فقد جاء فى أحاديث السيرة وأسباب النزول أن الملأ المستكبرين من قريش كانوا يطلبون الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن ينحى عن مجلسه ضعفاء المؤمنين من أمثال صهيب وعمار وخباب ، وأنهم كلموا فى ذلك مرة عمه أبا طالب ، وأن عمر أشار على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقبوله ، فجاءت هذه السورة وفيها نهى له عن الأخذ بهذا ، فالكلام فى ذلك من أول قوله

تعالى : « وأنذر به الذين يخافون » إلى قوله جل شأنه : « فإنه غفور رحيم » مراد به إرشاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى ما يسلكه فى هذه القضية ، وتعليم له أن صاحب الفكرة والمبدأ يجب ألا يجامل فيه قوياً لقوته ، وألا يستهين بضعيف لضعفه ، فإنما العبرة بالإيمان ، والولاية والأولوية لأهل الإيمان .

والعبارات الواردة فى هذه الآيات شبيهة بما جاء فى قصة نوح عليه السلام ، حيث يقول له قومه : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل » وحيث يقول لهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا » . « من ينصرنى من الله إن طردتهم » .

وهكذا نعلم أن الناس هم الناس ، لافرق بين الذين كانوا فى عصر نوح ، والذين كانوا فى عصر محمد ، وإننا لنرى خلفا بيننا لهؤلاء السلف يحاولون احتكار مجالس الحكم والسلطان والتوجيه دائماً ، ويحبون أن تخلو لهم وجوه الحاكمين والمصلحين بحجة أنهم الأشراف والسادة الأقوياء ، وأن الآخرين هم الضعفاء والمسودون .

وتبين الآيات بعد هذا أن الله تعالى يمتحن عباده ليظهر الذين يعرضون عن تقبل الحقائق استكباراً أو غروراً وترفعاً عن قبول ما قبله المستضعفون ، أو حسداً لهم على ما آتاهم الله من فضله .

وقد حدثنا التاريخ أن هذا دائما هو أسلوب المستكبرين ، وأن الحق إذا ظهر من جانب الضعفاء أو أصحاب المراتب الصغيرة أحجم عنه أهل الغرور بأنفسهم والمُدِلُّون بما لهم من مراتب عليا فى مجتمعهم ، فنراهم يقولون بلسان حالهم ، أو بلسان مقالهم مثل ما قال الأولون : « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا » ؟ .

وفى هذا أيضا إرشاد لسنة من سنن الله فى الناس ، وهى أن أصحاب المواهب وأهل الذكاء والعاملين المخلصين من شأنهم أن يحسدوا ، وأن تمتلىء قلوب المتخلفين عنهم ببغضهم والحقد عليهم ، وأن على الولاة والرؤساء أن يدركوا ذلك ويحترسوا منه ، ولا يدعوا سبيلا للحاسدين والحاقدين ، تمكنهم من إقصاء العاملين المخلصين ، شفاء لما فى صدورهم من الحقد ، وإطفاء لنيران الحسد التى تأكل منهم القلوب .

وتأمر السورة بعد هذا بإحسان معاملة المؤمنين وتبشيرهم برحمة الله ومغفرته حيث تقول : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ».

وهذا تعليم إلهي من الله لرسوله فى مقابل ما كانوا يراودونه عليه ، من طرد المؤمنين وإقصائهم ، وإنه لأدب كريم يجب أن يحمله كل مصلح نصب عينيه ، وأن يطبقه فى معاملته لأصحابه ومعتنقى فكرته ، فإن من أحسن ما يملك القلوب اعتراف الكبير بإحسان الصغير ، إن له فعل السحر فى النفوس ، إذ يبعثها على المبالغة فى التجويد والإتقان والإخلاص ، وعلى العكس من ذلك إذا أنكرت الجهود النافعة ، ونسيت الأعمال الصالحة ، وتجاهل الرئيس ما يبذله المرءوسين من جهود ، فإن ذلك يكسر نفوسهم ، ويفتُّ فى عضدهم ، ويبدّلهم بالإخلاص والدأب تهاوناً وتراخيا .

وأدب آخر فى هذه الآية الكريمة هو التوجيه إلى التبشير ، والابتعاد عن التنفير ، فإن التبشير من شأنه أن يبعث النشاط ، ويزيد الطاقة ، والتنفير من شأنه أن يهد القوى ، ويفسد النفوس .

تسلية الرسول :

وتقول سورة الأنعام فى تسلية الرسول ، واستلال عوامل اليأس والحزن من قلبه : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين ، وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحزن ويشتد حزنه لما يقابله به قومه من الإعراض والتكذيب ، ويخشى على دعوته أن يطول على أمد تكذيبهم ، وكان حزنه واشفاقه يصلان الى مدى بعيد ، حتى ذكر القرآن الكريم فى بعض

الآيات أنه حزن يكاد يؤدى الى ذهاب نفسه وهلاكها حيث يقول : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » ، « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » ، « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » . وهذا الحزن الشديد مظهر من مظاهر بشريته صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك احتياجه الى التسلية والتثبيت ، فإن الله سبحانه وتعالى كان يتعهده بذلك فيما ينزل من القرآن ، ويضرب له أمثال السابقين ، ويقص عليه قصص المرسلين ، فالنبوة لم تخرجه عن مقتضى بشريته من التأثر بدواعى الحزن ، والحاجة إلى التقوية والتثبيت ، وفى هذه الآيات من سورة الأنعام ذكر الله له أنه يعلم حزنه ، وأن هذا الحزن لما يقوله أعداؤه عنه وعن دعوته ، ثم سلاه وخفف عنه حزنه بتعريفه أن هذا الإعراض الذى يراه منهم ليس راجعا الى أنهم يعتقدون كذبه ، فقد جربوا عليه الصدق طول حياته ولم يعهدوا عليه كذبا ، ولكن هذا الإعراض راجع الى شأن عام لجميع الظالمين من أعداء الحقائق فى كل زمان ومكان ، فقد جرت عادة الظالمين أن يجحدوا بآيات الله ، والجحود هو نفى ما فى القلب إثباته ، أو إثبات ما فى القلب نفيه ، فهم يعلمون أن آيات الله حق ، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك ، وهذا كما جاء فى موضع آخر حيث يقول الله عز وجل : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » ومصداقه من السيرة ما روى من قول بعض هؤلاء الجاحدين : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء ! فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه » ! .

ثم ضرب الله تعالى لنبيه مثل الرسل من قبله حيث صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصر الله ، فكان ذلك بشارة قرت بها عينه ، وثلج لها صدره ، وعقب ذلك بأن هذه سنة الله فى الرسل وكلماته التى لا مبدل لها « ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين » وشبيه بهذا قوله تعالى فى آيات أخرى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون » .

وقد جاء فى مواضع أخرى من القرآن الكريم أن هـذه السنة ليست خاصة بالرسل ، وإنما هى عامة فى المؤمنين المصلحين ، إذ يقول الله عز وجل : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . « ولينصرن الله من ينصره » . « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

فكما أن هـذا كان تبشيراً للنبي ، واستلالا لبواعث الحزن من نفسه ، ينبغى أن يأخذه كل مصلح مؤمن داع إلى الله ، بشرى يثبت بها فؤاده ، ويقوى بها عزمه ، ويسير بنورها وهداها فى طريقه منتظراً النصر من ربه وإن تحالفت عليه الأعداء ، وكثرت فى سبيله العقبات ، فإن الإخـلاص يذلل الصعاب ، ويفتح الأبواب ، وإن الله مع الصابرين .

ولقد شاء الله تعالى أن يحسم كل أثر من آثار حزنه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن ينقذه من ترقبه لآية من الآيات التى كانوا يطلبونها ليؤمنوا به ، حيث كانوا يقولون : « لولا أنزل عليه آية من ربه » فقال له عز وجل : « وإن كان كبر عليك إعراضهم . . . » الخ . والمعنى : لسنا بمجيبى هؤلاء إلى ما يطلبون من الآيات ، فإن كان إعراضهم قد كبر عليك وأهمك إلى هـذا الحد ، فانظر ماذا تستطيع أن تفعل ، أتبتغى نفقاً فى الأرض تتعمق فيه حتى تأتيهم بآية ؟ أم تبتغى سلما فى السماء تصعد به حتى تحقق لهم ذلك ؟ أما الله فإنه لا يحققه وإن يجيبهم إليه ، ولو أنه أراد منهم إيمـان الإرغام والإلجاء لجمعهم على الهدى ، وهيأهم على استعداد يجعلهم يتقبلونه خاضعين ، كما خلق أصنافا أخرى من خلقه ، وهم الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فلا تـكن من الجاهلين ، فتطلب أو ترقب ما لم تقتضه حكمة الله .

كل هذا فيه تسلية للنبي ، وفيه مع ذلك تصوير بليغ لمقتضيات بشريته ، ودليل على أن الله تعالى يعالجه كما يعالج البشر ، ولو شاء لطبعه على طبيعة أخرى يكون معها بعيداً عن التأثر بالعواطف البشرية التى يعالجه منها ؟

الدين في معترك الفضاء

لحضرة صاحب السماحة العلامة الأستاذ محمد تقى القمى
السكرتير العام لجماعة التقريب

الحقيقة الثابتة :

ليس فى عالمنا حقيقة واقعة ثابتة كحقيقة الدين ، قاوم كل حرب ، وصد كل هجوم ، وانتصر على كل عدو ، وبقى حياً مزدهراً على مدى القرون .

حاربه الملاحدة ، لأنه لا يعجبهم ، وذهب الملاحدة وبقى الدين .

وحاربه الجبابرة ، لأن فى بقائه كسراً لشوكتهم ، وذهب الجبابرة وبقى الدين .

وحاربه الذين استغلوه ليصلوا بواسطته إلى الحكم ، فلما استقر لهم الأمر بطشوا به وطاردوه ، وكانوا أشد عليه وطأة من كل عدو .

وذهب المستغلون وبقى الدين .

حاربه كل هؤلاء ، وكانوا يعنفون فى حربه ، لأن نصوع حقيقته وشدة حيويته وقوة تأثيره فى الناس ، كانت تشكل أكبر خطر عليهم ، وتهدد نفوذهم وسلطانهم بالزوال .

بل إن حربهم إياه بلغت فى فترات من التاريخ غاية الشدة ، حتى لقد خشى المؤمنون ألا يبقى على الأرض من يعبد الله ويوحده .

ثم ذهبوا جميعاً ، بجيوشهم وبربريتهم ، وخلت الأرض منهم ليصبح ترابها معابد ومساجد للعابدين والساجدين .

ثم جاء القرن الأخير ، وظهرت فيه المذاهب والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية المستحدثة ، التى تقوم على المادية الخالصة ، أو على الإلحاد السافر وإنكار الله .

وزعم أصحاب هذه المذاهب أن مبادئهم تحقق السعادة للبشر . ولكنها عند التطبيق ظهر عجزها وقصورها ، وعدم جدارتها لإدارة شئون العباد ، بحيث اعترى الكثير من مبادئها التغيير والتبديل ، وربما الالتحام مع مبادىء من يعارضونها .

وقد تعرض الدين لهجمات هذه الكتل الكبيرة المارقة ، فتعطلت الكنائس فى بلاد ، وتعطلت المساجد فى بلاد أخرى .

فماذا كانت النتيجة ؟ .

إذا كان لكل مائة أو مئات كنيسة أو مسجد يجتمعون فيه ، فقد صار لكل واحد مسجد أو كنيسة بناها فى قلبه .

وإذا كانت الشعائر قد تعطلت أو أهملت بفعل البيئة ، فإن جوهر الدين - وهو الإيمان بوجود قوة فوق القوى - قد بقى فى القلوب سليما ، أدرك الإنسان ذلك وأحس به ، أو فاته إدراكه بتأثير الدعايات .

أى أن النتيجة كانت على عكس ما ذهبت إليه الظنون ، ومن الأحداث ما يكون له أثر كبير فى تقوية الدين ، بل فى إحيائه - وإن لم يكن ميتا فى وقت من الأوقات .

وستذهب هذه النظم المستحدثة ، لعجزها عن إسعاد البشر .

وستختفى من الوجود هذه المذاهب التى قامت على المادية أو الإلحاد .

ولن يبقى على تلك المذاهب والنظم ، تقدم العلوم فى تلك البلاد - كما يظن كثير من الناس - لأن العلم لا يعارض الدين ، فضلا عن أن كثيراً من العلوم من شأنها أن تدفع أهلها إلى الإيمان بالله .

الذرة والكون :

ومن عجيب الصدف اشتغال العالم فى نصف القرن الأخير بالذرة وبالكون ، أى بأصغر شىء وبأكبر شىء فى الوجود .

أما الذرة ، فهى أصغر لبنة يمكن أن تنقسم إليها العناصر مع احتفاظها بخصائصها المختلفة .

وقد تمكن الإنسان من تحطيمها ، وكانت النتيجة الملموسة فضيحة « هيروشيما » .

ولعل الإنسان لم يكن يدرك الدمار الذى يحدثه التفجير النووى ، فلما رآه رأى العين بدأ يخافه ويرهبه ، ويدعو إلى التعايش السلمى ليدفع عن نفسه خطر هذا المارد الجبار .

وأما الكون ، فإنه أوسع مما يتصوره أى عقل ، أو يحده أى حد .

والإنسان حين أراد أن يشرف هذا الكون غير المتناهى بقدومه ، أنفق فى سبيل ذلك مبالغ طائلة كانت تكفى لإسعاد كثير من البشر ، وسخر فى العمل لهذه الغاية أكثر من إثنى عشر ألف عالم ، وأجرى التجارب الباهظة التكاليف سنين عديدة ، وأرسل الأقمار الصناعية بعضها فى إثر بعض ، فعل ذلك كله لكى يطأ برجله القمر .

ويتساءل الكثيرون : ما ذا يكون مستقبل الدين بعد أن وجد الإنسان فى نفسه الجرأة على تحدى الكون ؟ .

والجواب أن كثيراً من العلوم من شأنها إن تقدم فيها الإنسان ، أن يحس بعجزه وضعفه ، وأن يتوجه بصورة إرادية أو لا إرادية إلى الله .

كثير من الأطباء دخلوا قاعات الطب غير مؤمنين ، وخرجوا منها وهم أشد ما يكون إيماناً بقدرة الله .

كثير من الفلكيين دخلوا المراصد غير مؤمنين ، وخرجوا منها وهم أشد ما يكون إيماناً بعظمة الله .

كثير من علماء الفيزياء دخلوا المعامل غير مؤمنين ، وخرجوا منها وهم أشد ما يكون إيماناً بسلطان الله .

وعلوم الفضاء لها الصدارة على كل العلوم ، ولا بد أن تنتهى بأصحابها إلى الإيمان واليقين ، والاعتراف بعظمة الخلاق وربوبيته .

ومع ذلك ، لننظر كم تقدم الإنسان بسفره إلى القمر ، وهل هو حقيقة تحدى الكون ، أو سخر الفضاء ؟ .

كلنا نعرف أننا نعيش فى الكرة الأرضية ، وهى سيارة من السيارات التسع التى تدور حول الشمس ، والقمر سيارة أخرى أصغر من الأرض ، والشمس بدورها تجرى فى مدار خاص بها ، تدور فيه حول مركز مجرتنا الطريق اللبنى - أو التبنى - وتكمل دورتها حول المجرة فى ٢٥٠ مليون سنة ، ومعروف أن مجرتنا هذه ليست من كبريات المجرات ، بل هى واحدة من مجرات تعد بالبلايين ، وكل مجرة منها قوامها مئات آلاف الملايين من النجوم والشموس والكواكب .

هذا كله بالنسبة لعالمنا المرئى ، ومن الممكن وجود كثير من المجرات خارج النطاق الذى عرفناه ، فقد يتعدد وجود الأكوان بحيث يفوق الوصف والخيال .

فالكون وسيع إلى درجة أن العلماء جعلوا مقياس المسافة فيه السنة الضوئية ، والضوء كما نعلم يقطع فى كل ثانية ٣٠٠ ألف كيلو متر .

النظام الأتم :

وهذا الكون الوسيع يحكمه نظام دقيق ، يعجز البشر عن التفكير فيه لدقته . فكل شمس وكل نجم وكل كوكب وكل مجرة تدور فى دائرة محددة ، لا ينحرف واحد منها عن دائرته ، ولا يبطىء فى سيره ، ولا يسرع عن مألوفه ، ولا يتخلف عن حركته واحد من المليون من الثانية .

والنظام الذى يتحكم فى هذا الكون الوسيع ، من أرضنا التى هى تحت أقدامنا إلى كواكب فى مجرة تبعد عنا بمليونى سنة ضوئية ، هو النظام الأتم الذى عجز

الإنسان بالأمس عن التفكير فيه لدقته ، ولمس اليوم كاله وروعته بخروجه إلى الفضاء ، على ضآلة المسافة التى قطعها فيه .

ويكفى دليلا على تفاهة ما وصل إليه الإنسان أن نذكر أن المسافة بيننا وبين القمر تقرب من ٢٤٠ ألف ميل ، لو حسبناها بحساب السنة الضوئية ، وهى المقياس المألوف لقياس الفضاء ، لوجدنا أنها تقطع فى ثانية وربع الثانية ، فإذا وضعنا إلى جانب ذلك أن بيننا وبين المجرة المتسلسلة مليونى سنة ضوئية ، أدركنا تفاهة ما وصلنا إليه بالنسبة إلى سعة الكون العظيم .

فهل يحق لنا أن نزعم أننا غزونا الفضاء ، أو ندعى أننا سيطرنا عليه ؟ .

إن مثل الإنسان فى صعوده إلى القمر ، كمثل طفل صغير يحبو ، تمكن بعد جهد شديد من صعود درجة واحدة فى سلم عمارة شاهقة ، فلما استقر على هذه الدرجة ، جعل ينظر إلى نفسه باعجاب ، وينظر إلى ماحوله بغرور ، وهو يحسب أنه سيطر على العمارة الشاهقة ، مع أنه لم يعرف شيئاً عن ارتفاعها ، ولا عن هندستها ، ولا يعرف لماذا بنيت ، وكم عدد الأدوار فيها .

يقول بليفون العالم الشهير : « إن الكون كله بنجومه المختلفة الأحجام التى لاحصر لها ، والتى تندفع فى جميع الاتجاهات كأنها شظايا قنبلة متفجرة ، صورة لا يكاد المرء يتخيلها حتى يدركه البهر وتنقطع أنفاسه ، ولكن يبدو أن الأجدر أن يبهر ويقطع الأنفاس هو رؤية هذا الكائن البشرى الضئيل الذى يعيش على شظية من شظايا نجم صغير فى زاوية حقيرة من زوايا مجرة لا تختلف شيئاً عن الملايين من أمثالها ، هذا الكائن يجرؤ على أن يسمو ببصره إلى أطراف الفضاء ، ويجرؤ فيتحدى ، ثم يجرؤ فيحاول أن يعرف الكون » .

رسالة السماء :

إن الإنسان لتعتريه الحيرة كلما تعمق فى هذا الكون ، وإن حيرته لتبلغ منتهاها حين يرى أنه حتى بالنسبة لما وفق فيه ، كنزوله على القمر ، أو إرساله الصواريخ إلى الزهرة أو المريخ ، يجد أن هذا التوفيق مرهون بالنظام الدقيق فى حساب

الكون ، فلو كان هناك تخلف بمقدار ثانية فى دوران القمر ، أو تغير طفيف فى اتجاهه ، هل كان الإنسان يمكنه أن يدرك القمر وأن ينزل عليه ؟ لو أن لحظة من التأخير أو السرعة طرأت على حركة القمر ، لبقى الإنسان يتيه بسفينته فى الفضاء دون أن يبلغ ما يريد .

فتوفيق الإنسان فى وصوله إلى القمر ، أو فى وصول صواريخه إلى المريخ والزهرة ، هـذا التوفيق نفسه يعتمد كل الاعتماد على النظام المحكم الدقيق الذى يسيطر على كل الأجرام السماوية صغيرها وكبيرها ، ويجعلها تسير فى مداراتها دون أن يطرأ على حركتها أدنى اختلال ، كأنما هى عقارب ساعة تتحرك على ميناتها بغاية الدقة وبغاية الانتظام .

واعتمادا على هذا النظام المحكم الدقيق ، لم يكن على الإنسان إلا أن يحسب المدة والطاقة ، ويضع لسفينته الأوصاف التى تضمن لها قوة المقاومة للجاذبية والضغط ، لتصل إلى النقطة التى يريد ، وهذه النقطة تبدو لشدة الضبط وكأنها نقطة ثابتة تنتظر وصول سفينة الفضاء .

بغير هذا ، هل كان يمكن للإنسان أن يحسب ويقرر أنه فى يوم كذا ، وفى الساعة والدقيقة والثانية كذا ، يمكنه أن يدرك القمر فى جانبه المنير ، أو جانبه المظلم ، ويطابق حسابه الواقع ؟ .

واعتماد الإنسان على دقة النظام الكونى والانتفاع به ، لا يعنى أن الجهود التى بذلت فى رحلات الفضاء كانت هينة أو ضئيلة . كلا ، بل إن علماء الفضاء قد بذلوا جهوداً جبارة مضنية ، وقد حققوا انتصارات علمية كبيرة .

فالتغلب على الجاذبية والانفلات من سلطانها ، هو انتصار على كبير .

وخروج الإنسان إلى مجال انعدام الوزن والسبح فيه ، هو انتصار على كبير .

ومعرفة الضغوط المتباينة فى مختلف الأجواء ، هو انتصار على كبير .

وإرسال سفينة تخترق الأجواء ، وتحتمل الضغوط ، وترسو على القمر ، هو انتصار على كبير .

والتحكم فى مسيرة سفن الفضاء ذاهبة وآيبة ، هو انتصار على كبير .

وهذه الانتصارات العلمية ، لا تدل فقط على الجهود الضخمة التى بذلها علماء الفضاء ، بل تدل كذلك على النبوغ والعبقرية والعلم الغزير .

وليس من شك فى أن هذه الانتصارات العلمية ، قد نقلتنا فى مجال المعرفة ، من نطاق الفروض والظنون إلى الحقائق المسلمة والواقع الملموس ، ومثل هذه النقلة العلمية الكبيرة قد تورث النفس البشرية الحيرة ، وحين تبدأ الحيرة تبدأ رسالة الدين ؛ وواجب العلماء أن يهتبلوا فرصة حيرة البشر ليضعوا أمام الحائرين قدرة خالق الكون الكون العظيم . ولن يستطيعوا أداء هذا الواجب إلا إذا تتبعوا الحركة العلمية ، وعنوا بدراسة علم الكون أو علم الفضاء عنايتهم بدراسة علم التوحيد ، ليستعينوا بذلك على تثبيت معالم الإيمان .

أما إذا تقوقعوا على أنفسهم ، وظلوا سادرين عن كل ما يجرى حولهم ، وعاشوا على معارف قديمة تناسب قروناً مضت ، فويل لهم من هذا التقصير ، وويل للبشرية من علم متمرد طليق .

إن عصرنا هذا سمى بعصر العلوم ، ثم سمى بعصر الذرة ، وسمى أخيراً بعصر الفضاء ، وأرى من الانصاف أن نسميه عصر التبحر فى عظمة الله ، وبالتالى عصر التمهيد لمعرفة الله والإيمان بقدرته التى لا تقف عند حدود « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ؟

في القصص القرآني

للأستاذ أحمد الشايب

— ٦ —

٣٦ — أما مصدر القصص القرآني [١] ، فقد كان موقفهم فيه عجيبا ، فضح ما في نفوسهم من ريب وضلال ، قالوا : إن محمداً فنان القصص القرآني ومنشئه ، وقالوا إن مصادر القصص القرآني هي :

(١) التوراة والإنجيل .

(٢) الأقاصيص التي كانت متداولة معروفة في الجزيرة العربية .

(٣) الحكايات التي كانت تدور حول ناقة صالح وجن سليمان .

(٤) خليط من عناصر فارسية وإسرائيلية يؤلف بعض القصص .

فإذا جمعنا بين القولين عندهم ، كان معنى ذلك أن محمداً كان يأخذ من هذه المصادر ويقص في قرآنه .

فلما كشفنا لهم ما تورطوا فيه من جهل وضلال اضطربوا وأخذوا يمحون ما كتبوا ، ويكتبون ما محوا ، ويداورون ويؤولون مالم يسعهم التأويل ، ويسيرون في متاهات لعلهم ينجون من صدمة الحق ، فإذا بهم يقعون في شر مما حاولوا الخلاص منه ، وهكذا من عثر لجَّ به العثار .

إنهم داروا في حلقة مفرغة ، وكأنهم كبر عليهم أن يقولوا إن القرآن من عند الله ليتركوا الباب مفتوحاً لكل من يقول إن محمدا فنان القرآن حتى يكونوا هم أسبق الناس إلى هذه العقيدة العبقرية ، وحتى يتركوا للأجيال هذا الفتح المبين .

---

(١) راجع كتاب : « النبأ العظيم » للمرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ، ففيه دراسة مستفيضة لمصدر القرآن الكريم .

داروا فى حلقة مفرغة ، وقالوا إن القرآن كان يأخذ من المصادر التى أوردوها وهى التى تمثل العقلية العربية إبان ظهور القرآن ، وليس بلازم أن يكون ما يقصه عنها حقا صادقا ، بل يصح أن يعتنق القرآن غير الصدق والواقع ، يقولون بالنص عن نظريتهم هذه : « ليست إلا القول بأن ما فى القصص القرآنى من مسائل تاريخية ليست إلا الصور الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبى عليه الصلاة والسلام عن التاريخ وما يعرفه هؤلاء لايلزم أن يكون هو الحق والواقع ، كما لا يلزم القرآن أن يصحح هذه المسائل أو يردها إلى الحق والواقع ، لأن القرآن الكريم كان يجيء فى بيانه « المعجز » على ما يعتقد العرب ، وتعتقد البيئة ، ويعتقد المخاطبون . هذا قولهم عن مصادر القصص القرآنى المعجز الذى يتحدى العرب ببلاغته وصدقه ، إنه لا يلتزم الصدق والواقع . وهنا نقول ما قال الأستاذ الشيخ محمود شلتوت :

« وكيف يمكن أن تؤدى هذه الآيات ـ إذا حملت على ما يريده صاحب الفن القصصى ـ إلى الغاية منها حين ينكشف أمرها ويتبين للناس أنه لا واقع لما تقصه وتتحدث به » ؟ ! .

٣٧ — وإذا كان القرآن الكريم عندهم صادراً عن محمد ، وهو بشر ، فقد جاز على قرآنه مايجوز على غيره من كلام البشر ، وجاز للناس أن يتحدوه ويكذبوه ، فقد نفى القرآن الأساطير عن نفسه بقوة حاسمة ، فقالوا له : بل فيك الأساطير ، قال الله فى سورة المطففين : « ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » . وهكذا يصرون على تحدى الله تعالى « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » ويقولون متابعة لهذا التحدى : « أما الآيات التى يصف القرآن فيها بعض القصص بهذه الصفة « بالحق » من مثل قوله تعالى : « إن هذا لهو القصص الحق » ، « وجاءك فى هذه الحق » فليس فيها ما يدل دلالة قطعية على أن المقصود بهذه الصفة إنما هى الأحداث

التاريخية ، بل لعل رأيا آخر هو الراجح ، وهو أن هذه الصفة إنما تطلق على المقصود من هذه القصص من أمثال التوجيهات الدينية ، معنى هذا أن هذه القصص ليست صدقا فى ذاتها ، وإنما افتريت لغرض التعليم مثل حكايات كليلة ودمنة .

ولكن القرآن الكريم شنع بالذين يتهمون النبي بأنه افترى القرآن ، أو الذين يقولون عن القرآن إنه إفك افتراه محمد - والقصص من القرآن - : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً - أم يقولون افتراه ، بل هو الحق من ربك - ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب أو كذب بآياته - أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون - تنزيل من رب العالمين - ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » ويأبى أصحابنا إلا أن يلحوا فى التشكيك فى القيمة التاريخية الواقعية لما يتصل بهذه الآيات من أحداث وأشخاص ، فيقولون : « إن آيات الافتراء لا تتعلق بالمواد الأدبية القصصية ، ولا بما فى هذه القصص من صور للأحداث والأشخاص » وهكذا ليصروا على أن الأحداث القصصية فى القرآن ليست من باب الصدق والواقع .

فإذا ضيق القرآن عليهم الخناق ، وقال فى آخر سورة يوسف عن قصص الرسل : « ما كان حديثاً يفترى » اضطربوا ولم يطمئنوا إلى صدق القرآن وشمول هذا الصدق للقصص كله ، فقالوا إن القرآن يدل بهذه القصة - قصة يوسف وأخوته - على أن القرآن قد نزل من السماء ، ويحسن بنا أن نقف بالآيات عند هذا الحد ولا نعدوه إلى القصص ، وهل ما تصوره هو الواقع أو صور الأحداث ، لا نعدوه إلى هذا ، لأنه أمر مسكوت عنه ، وأقل ما يجب هو التوقف حتى يأذن الله ، فى حين أن نص الآيات صريح فى تناول قصص الرسل أجمعين « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ، لقد كان فى قصصهم - أى الرسل - عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى » فهل يريد هؤلاء أن يقولوا إن قصة يوسف وأخوته فى القرآن كذب وافتراء ؟ وإذا كانت هذه عقيدتهم أفلا تتعدى هذه القصة إلى غيرها فى القرآن ، بل إلى القرآن جميعه ؟ ! لقد صدق الله

العظيم وكذب الضالون « ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به فسوف يعلمون » .

٣٨ — وعند أصحابنا : « أن الرسل آمنوا قبل البعثة بما تؤمن به البيئة من عقيدة ، ودانوا بما تدين به ، وعبدوا ما تعبد من إله » .

وهذا الكلام متصل بعصمة الرسل واتهامهم بالكفر قبل البعثة ، ونحن ننقل هنا ما نشره الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين[1] : « أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة وبعدها ، وممن حكى الإجماع على هذا الإمام عضد الدين فى كتاب المواقف ، والقاضى عياض فى كتاب الشفا ، وإنما يقول : من يدعى أنهم قلدوا الأهل والعشيرة ، ويخرج على إجماع المسلمين من استطاع أن يملأ يده من روايات تاريخية صحيحة ، أو استطاع أن يقيم دليلا نظرياً يسعه المنطق السليم » .

(١) وقد أجاب الرازى[2] عن الشبهة المتعلقة بموسى فى قوله تعالى حكاية عن فرعون : « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » فالكفر هنا معناه الكفر بألوهية فرعون أو بنعمته ، وقد أجاب موسى بأنه قتل المصرى وهو ذاهل عن نتيجة الوجزة .

(٢) وكذلك آيات شعيب فسرها الرازى بما يدفع الشبهة[3] عن هذا الرسول الكريم ، فقولهم : « أو لتعودن فى ملتنا » معناه : تصيرون ، وعاد بمعنى صار كثير مستعمل ، ومعنى : « نجانا الله منها » فى الآية الأخرى[4] علمنا قبحها وفسادها ، ونصب الأدلة على أنها باطل ، ومثل ذلك يقال فى الآية : « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا »[5] .

(٣) وأما آية يوسف : « إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله » فلا شبهة فيها ، لأن ترك الشىء لا يستلزم التورط فيه ، بل هو هنا عدم التعرض له ، كما تأخذ

(١) مجلة لواء الإسلام عدد ١٤ / ١٢ / ١٩٤٧ . (٢) ج ٦ س ٣٤٣ .
(٣) ج ٤ س ٣٨١ . (٤) الأعراف / ٨٩ . (٥) الرازى ج ٥ س ٣٤٣ .

كتابا وتترك الآخر ، وقد يكون الأمر أن يوسف كان يخفى التوحيد تقية ثم أظهره بعد ، فكان ذلك جارياً بجرى ترك ملة أولئك الكفرة [١] .

على أن آيات يوسف تدل على أن التوحيد كان قائماً أيام عبادة الفراعنة ، يؤيد ذلك قول امرأة فرعون : « رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين »[٢] هذا وقد أظهر يوسف رسالة التوحيد وعقيدة بنى إسرائيل قبل أن يأتى موسى ، وهى التى ورثها يوسف ، وورّثها يعقوب لبنيه : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون »[٣] فهم لم يعبدوا فرعون ، ولم يتخذا دين المصريين لهم دينا .

(٤) أما آية محمد فلا تحتاج إلى الوقوف عندها لشبهة عليها ، وهى قوله تعالى : « قل إنى نهيت أن أعبد الذى تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى »[٤] لأن النهى هنا معناه التحذير ، والدليل على ذلك من القرآن نفسه « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » أى قمعها عن شهوتها ، ودفعها عما ترغب إليه وهمت به[٥] . وقال تعالى حكاية عن إبليس مع آدم وزوجته : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » فإن آدم وحواء لم يكونا قد أكلا من الشجرة حين أراد إبليس إغراءهما بالأكل منها .

٣٩ — ثم نراهم يهونون من شأن المعجزات وعلاقاتها بإثبات النبوة والرسالة ، ونحن لا نطيل الوقوف هنا ، لأن إنكار المعجزات مصادمة لنصوص القرآن التى لا تحتمل التأويل ، وبخاصة أن من الناس من ينكرها ، ويستبعد حدوثها لمخالفتها للسنن المألوفة ، يقول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات »[٦] والآيات هى المعجزات ، قالوا : منها العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر

(١) راجع الرازى ج ٥ ص ١٨٩ . (٢) التحريم / ١١ . (٣) البقرة / ١٣٣ .
(٤) غافر / ٦٦ . (٥) راجع مفردات الراغب ص ٥٢٧ ، وتفسير الرازى ج ٥ ص ٢٢٧ .
(٦) الإسراء / ١٠١ .

والبحر والطور الذى نتقه على بنى إسرائيل [١] ، وقال تعالى : « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى » [٢] .

عرض الرازى فى تفسيره لهذه المسألة كثيرا ، وقد قال عند قوله تعالى : « وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » [٣] ما يلى :

السؤال الثالث : كيف يعقل خروج المياه العظيمة من الحجر الصغير ؟ .

الجواب : هذا السائل إما أن يسلم وجود الفاعل المختار أو ينكره ، فإن سلم فقد زال السؤال ، لأنه قادر أن يخلق الجسم كيف يشاء ، كما خلق البحار وغيرها . وإن نازع فلا فائدة له فى البحث عن معنى القرآن والنظر فى تفسيره ، وهذا هو الجواب عن كل ما يستبعدونه من المعجزات التى حكاها الله تعالى فى القرآن من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وأيضا فالفلاسفة لا يمكنهم القطع بفساد ذلك [٤] . ويقول الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد : « المعجزة ليست من نوع المستحيلات عقلا ، فإن مخالفة السير الطبيعى المألوف فى الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف . فإن قيل إن ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعى ، قلنا : إن واضع الناموس هو موجد الكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ، ولكنا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده .. المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوة النبوة ، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده » .

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٣٧٧ . (٢) المائدة / ١١١ . (٣) البقرة / ٦٠ .
(٤) تفسير الرازى ج ٢ ص ٥٤١ .

٤٠ — وكان المفروض أن يكون أصحابنا منصفين مع المراجع التى اعتمدوا عليها فيما نشروا من ضلالات ، ولكن مراجعهم كانت بين ظالمة ومظلومة .

(١) ولعل أحظاها لديهم كتاب : « تنوير الأفهام فى مصادر الإسلام » لسانت كلير ، الذى أراد أن يدك أساس الإسلام بإثباته أن أكثر القرآن وأغلب عقائده أخذت من الأديان الأخرى ومن الكتب التى كانت موجودة فى أيام محمد ، وهذا الذى ذكره سانت كلير يذكرنا ما قاله أصحابنا عن مصادر القصص القرآنى ، وعلى أية حال ، فقد أخذوا عنه أن محمداً أخذ ما فى القرآن من تعاليم وقصص وحكايات مما كان متداولا بين اليهود فى عصره ، وكثير من قصص القرآن مستعار من الخرافات اليهودية ، كقصة هاروت وماروت ، وقصص القرآن إن لم تكن مطابقة لنصوص التوراة والإنجيل فهى أوهام باطلة ألفها كتبة الخرافات من اليهود ، وقصة أصحاب الكهف خرافة يونانية ، وقصة مريم ابنة عمران خطأ جسيم فى القرآن ، وكلام عيسى فى المهد خرافة كاذبة ، والقرآن يعتمد على الخرافات والأساطير ، وغير ذلك كثير أخذه أصحابنا عن سانت كلير ، واحتفلوا به وفرضوه على القرآن دون سند أو برهان .

(٢) تفسير الفخر الرازى ، وقد أخذ نفسه بإيراد شبهات الملاحدة على القرآن الكريم والرد عليها ، ولكن أصحابنا كانوا يوردون الشبهة ويغفلون الرد عليها ، وذلك واضح جداً فى الرد على الشبهات التى ادعاها سانت كلير وعلى غيرها ، وقد أوردنا بعضها فيما مر أثناء هذه الفصول ، كذلك أوردنا الشواهد على أن أصحابنا هؤلاء كانوا يزيفون كلام الرازى بالتقول عليه ، وبتر كلامه ، وتحريفه ، وإفساده ، وتحميله ما لا يحتمل ، متعسفين فى ذلك لعلهم يصلون إلى ما يدعون على كتاب الله من أوهام وضلالات .

(٣) تفسير المنار ، وبعضه تلخيص لبعض دروس الأستاذ الشيخ محمد عبده ، وسائره للشيخ رشيد رضا ، وكان مسلك أصحابنا مع هذا التفسير هو نفس مسلكهم مع تفسير الرازى ، وقد ذكرنا لذلك شواهد كثيرة فى هذه الفصول ، وأذكر هنا

مثلا واحداً من كثير ارتكبه شيخ هـذه العصبة ، فقد عرض لنص وارد فى هذا التفسير ، ونسبه إلى الشيخ محمد عبده ، فوقع بذلك بين الجهل والكذب ، لا مفر له من أحدهما ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » فقد نسب شيخهم إلى الشيخ محمد عبده أنه قال : إن هذه القصة من باب التمثيل ، والواقع أن هذا الرأى للشيخ رشيد رضا ، فالشيخ إما أن يكون جاهلا بطريقة تفسير المنار ، وإما أن يكون متقولا على الشيخ محمد عبده .

(٤) أما القرآن الكريم ـ وهو هنا مصدر الموضوع ـ فيجب عندهم أن يخضع لهذا المنهج الفاسد فى الدراسة ، ولهذه الفروض الخاطئة ، والدعاوى التى أخذوها عن المبشرين وحاولوا إلصاقها بالقرآن ، وقد ذكرنا بعضها عن كتاب سانت كلير السابق الذكر ، فوق ما زعموه جهلا وضلالا مما سبق ذكره .

(٥) أما ما صح من أخبار التاريخ ، وما كتب عن القرآن وتوثيقه وفنونه وإعجازه ، وما فسره به الثقات ، وما اتصل بحياة الرسل ومكانتهم ، فإن ذلك كله لم يفهم شيئا ، وركبوا رءوسهم ظانين أن يكسبوا شهرة ، أو يظفروا بمكانة عند المبشرين ، ذلك كله على حساب القرآن الكريم « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد » وصدق الله العظيم ؟

سماحة الإسلام مع الأديان الأخرى وأهلها

بقلم الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

وقف الإسلام حيال الأديان الأخرى وحيال أهلها موقفاً إنسانياً كريماً يتسم بالتسامح واحترام عقائد هذه الأديان وشعائرها ، وعلى أساس هذا الموقف أقام الإسلام جميع ما قرره من قواعد ، وما سنه من مبادىء لتنظيم العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين .

ومن أهم هذه المبادىء جميعها مايقرر الإسلام اتباعه مع أهل البلد الذى يفتحه المسلمون . فالإسلام يوجب على المسلمين أن يتركوا أهل هذا البلد أحرارا فى عقائدهم وعباداتهم وشعائرهم . وقد حافظ المسلمون على هذا المبدأ وسجلوه فى كثير من المعاهدات التى عقدوها مع أهل البلاد التى افتتحوها . وفى هذا يقول عمر ابن الخطاب فى معاهدته مع أهل بيت المقدس عقب فتحه له : « هذا ما أعطى عمر ابن الخطاب أهل إيلياء (بيت المقدس) من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم ، لا ينتقص منها ولا من حيّزها ، لا يكرهان على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » ويقول عمرو بن العاص فى معاهدته مع المصريين بعد فتحه لمصر : « هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم وكنائسهم وصلبانهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص » وكان الرومان أيام أن كانت مصر تابعة لهم ، قبل فتح العرب لها ، قد حاربوا المذهب المسيحى الذى كان يعتنقه المصريون حينئذ ، وهو المذهب اليعقوبى ، وفرضوا عليهم مذهباً مسيحياً آخر هو المذهب الملكانى الذى كان يعتنقه الرومان ، وعيّنوا من قبلهم بطريركا ملكانيا على مصر ، وعزلوا البطريرك المصرى

اليعقوبى ، وهو الأنبا بنيامين ، الذى اختفى فراراً من بطش الرومان . فلما تم تحرير مصر على يد عمرو بن العاص أعطى الأمان للأب بنيامين فظهر ، وسمح له بفتح الكنائس اليعقوبية التى كان قد أغلقها الرومان ، وبإعادة عباداتها وشعائرها إليها ، وسمح لأتباع كل مذهب بممارسة عقائدهم وشعائرهم وعباداتهم وفق تعاليم مذهبهم فى حرية وأمن واطمئنان . وهذا مع أن الإسلام يحكم بكفر كلتا الطائفتين ـ اليعقوبية والملكانية ـ فكلتاهما تعتقد أن المسيح إلاه ، والإسلام يحكم بكفر الذين يعتقدون هذا الاعتقاد ، وفى هذا يقول القرآن الكريم : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم »[1] ، ويقول : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام »[2]. وكل مابينهما من فرق فى هذه الناحية ينحصر فى أن الطائفة اليعقوبية تذهب إلى أن طبيعة المسيح إلاهية خالصة لا تشوبها شائبة من الناسوت ، على حين أن الطائفة الملكانية تذهب إلى أنه قد امتزج فيه اللاهوت بالناسوت ، فليس فى مذهب أية طائفة منهما ما يمت بصلة ما إلى الإسلام وعقائده ، ومع ذلك سمح الإسلام لكلتيهما بممارسة عقائدها وعباداتها وطقوسها فى حرية وأمن واطمئنان .

ويبدو كذلك الموقف الإنسانى الكريم الذى يقفه الإسلام حيال الأديان الأخرى وأهلها فيما يوجب على المسلمين اتباعه من قواعد وآداب فى مناقشاتهم الدينية مع أهل الأديان الأخرى ، فالإسلام يوجب على المسلمين فى هذه المناقشات أن يسلكوا أحسن الطرق وأدناها إلى الأدب والمجاملة ، وأن يلتزموا جادة العقل والمنطق ، فيكون عمادهم قرع الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، وأن يفسحوا المجال لأهل الأديان الأخرى للاستدلال على صحة أديانهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وفى هذا يقول الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[3] ، ويقول مخاطباً المؤمنين : « ولا

---

(١) آيتى ١٧ ، ٧٢ من سورة المائدة . (٢) آية ٧٥ من سورة المائدة .
(٣) آية ٢٥ من سورة النحل .

تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن »[١]، ويقول مخاطباً أهل الأديان الأخرى: « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[٢]، « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا »؟[٣] « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين »[٤].

ولا يكتفى القرآن الكريم بذلك، بل إنه ليغرى الكفار بالمناقشة والإتيان بالدليل على صحة دينهم، فيقول: « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين »[٥] أى إنه لا بد أن يكون أحدنا على حق والآخر على باطل، فتعالوا نتناقش وليدل كل منا بحجته، ليتبين أينا على هدى وأينا فى ضلال مبين.

ويبدو كذلك الموقف الإنسانى الكريم الذى يقفه الإسلام حيال الأديان الأخرى وأهلها فيما يوجب على المسلمين اتباعه مع غير المسلمين الذين يساكنون المسلمين فى بلد واحد تابع للدولة الإسلامية. فالإسلام يقرر أن هؤلاء لهم ما للمسلمين من حقوق، وتطبق عليهم القوانين نفسها التى تطبق على المسلمين، إلا ما تعلق منها بشئون الدين فتحترم فيه عقائدهم، فلا توقع عليهم الحدود ولا العقوبات فيما يحرمه الإسلام ولا تحرمه أديانهم، فلا يعاقب النصرانى مثلا إذا شرب الخمر، لأن دينه فى أوضاعه الأخيرة يحل شرب الخمر، ولا يعاقب اليهودى من فرقة القرائين مثلا إذا تزوج بنت أخته أو بنت أخيه، ولا يفسخ عقده، لأن مذهب فرقته يحل هذا الزواج، ولا يدعون إلى القضاء، ولا إلى العمل فى أيام أعيادهم، لقوله عليه الصلاة والسلام: « أنتم يهود، عليكم خاصة ألا تعدوا فى السبت ».

ولا يقف الأمر فى معاملة غير المسلمين الذين يساكنون المسلمين فى بلد واحد تابع للدولة الإسلامية عند نصوص الشرع والقانون، بل إن المسلمين لمطالبون فوق

(١) آية ٤٦ من سورة العنكبوت.
(٢) آية ١١١ من سورة البقرة.
(٣) آية ١٤٨ من سورة الأنعام.
(٤) آية ٤ من سورة الأحقاف.
(٥) آية ٢٤ من سورة سبأ.

ذلك بالمجاملة وحسن المعاملة زيادة على ما تقتضيه النصوص، وفى هذا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « من آذى ذميا فقد آذانى » ويقول : « من آذى ظلما يهوديا أو نصرانيا كنت خصمه يوم القيامة » وعند ما جاء رسل نجران المسيحيون إلى المدينة ليفاوضوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وكانت مفاوضتهم تقتضى بقاءهم بعض الوقت، خصص لهم الرسول عليه الصلاة والسلام نصف مسجده ليؤدوا فيه صلاتهم المسيحية . ومرت يوماً جنازة يهودى أمام الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقام تعظيما لها ، فقيل له : إنها جنازة يهودى ! فقال : « ولم لا ، أليس إنسانا » ؟ ! .

وروى أن يهوديا شكى على بن أبى طالب إلى عمر بن الخطاب فى أيام خلافته ، فاستقدم عمر عليا وأوقفه مع خصمه اليهودى على قدم المساواة ، ولكنه عندما أخذ فى تحقيق الشكوى خاطب عليا بكنيته ، جريا على عادته فى خطابه معه ، فقال له : يا أبا الحسن ، والخطاب بالكنية فى اللغة العربية أسلوب من أساليب التعظيم ، على حين أنه خاطب اليهودى باسمه ، فظهرت آثار الغضب على علىّ ، فقال له عمر : أغضبت أن كان خصمك يهوديا وأن مثلت معه أمام القضاء على قدم المساواة ؟ ! فقال على : لا ، ولكننى غضبت لأنك لم تكمل المساواة بينى وبينه ، فخاطبتنى بكنيتى ، وخاطبته باسمه .

وأوصى الرسول عليه الصلاة والسلام الجار المسلم أن يحسن إلى جاره غير المسلم ، فقال : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، فأما الجار الذى له حق واحد فجار غير المسلم (له حق الجوار ويجب الإحسان إليه بمقتضى هذا الحق) وأما الجار الذى له حقان فجار مسلم لا رحم له (أى ليس بينه وبين جاره قرابة) له حق الجوار وحق الإسلام . وأما الجار الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق القرابة » .

وروى مجاهد قال : كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يذبح شاة ، فقال

ابن عمر لغلامه : إذا سلخت هذه الشاة فابدأ بجارنا اليهودى ، وكرر طلبه هذا ثانية وثالثة . فقال له مجاهد متعجبا من إلحاحه فى طلبه ، مع أن الجار يهودى : كم تقول هذا يا ابن عمر ؟! فقال له : « إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه » أى سيجعل له نصيباً من تركتنا بعد وفاتنا ، ولم يفرق الرسول بين الجار المسلم والجار غير المسلم .

وأوجب الإسلام على بيت المال الإنفاق على الزَّمِن « وهو العاجز عن الكسب » وعلى الشيخ الفانى ، وعلى المرأة إذا لم يمكن لواحد من هؤلاء من تجب عليه النفقة من أقربائه ، ولا يفرق الإسلام فى ذلك بين المسلم وغير المسلم . فقد روى أبو يوسف فى كتابه : « الخراج » أن عمر بن الخطاب فى أيام خلافته قد مرّ بباب قوم وعليه سائل يسأل ، وكان شيخاً كبيراً أعمى ، ويبدو عليه أنه من أهل الكتاب ، فضرب عمر بعضده وقال له : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى . قال : وما ألجأك إلى ما أرى ؟! قال : أسأل الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به إلى بيته وأعطاه شيئاً مما وجده فى بيته ، ثم ذهب به إلى خازن بيت المال ، وقال له : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله فى هرمه « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، فله حق فى الصدقة ، ورد عنه الجزية وعن أمثاله ، واجعل له رزقا فى بيت المال .

° ° °

من هذا كله يظهر مبلغ التجنى على الإسلام والحقيقة والتاريخ فيما يفتريه بعض مؤرخى الفرنجة وبعض المستشرقين على الإسلام ، إذ يلصقون به صفة التعصب ، ويزعمون أنه قد انتشر بالسيف ، فقد رأينا أن الإسلام برىء كل البراءة من جميع سمات التعصب ومظاهره ، بل رأينا أنه يذهب فى التسامح مع الأديان الأخرى وأهلها إلى أقصى ما يمكن تصوره فى هذا السبيل ، ورأينا أنه ينهى نهياً باتا عن

الإكراه فى الدين ، ولا يعتد إلا بالعقيدة المنبعثة عن يقين وإقناع ، ولا يقص علينا التاريخ حالة ما قد انتشر فيها الإسلام بقوة السيف ، أو عن طريق الضغط والإكراه ، وإنما يرجع الفضل فى انتشار الإسلام فى البلاد التى فتحها العرب وفى غيرها إلى ما يمتاز به هذا الدين القيم فى عقائده وشعائره من يسر وسمو ، واتساق مع المنطق السليم ، ومجانبة لمظاهر العنت والحرج ، وصلاحية لمختلف البيئات والعصور ، وشمول لجميع شئون الحياة ، وديموقراطية فى الحكم ، وحرص على احترام حقوق الإنسان ، وتقرير لمبادىء الحرية والإخاء والمساواة على أكمل وجه ، فكان يكفى أن تمتزج الجالية الإسلامية بأهل بلد غير إسلامى ، وتدعو إلى دينها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقف أهل هذا البلد على أصول هذا الدين الحنيف ، ويشاهدوا ما يضربه أفراد هذه الجالية من مثل عليا فى عباداتهم وسلوكهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض ، ومعاملاتهم مع غيرهم ، مطبقين فى ذلك مبادىء الإسلام وتعاليمه ، كان يكفى ذلك لكى يدخل أهل هذا البلد فى دين الله أفواجا عن طواعية واقتناع ؟

من ثمرات المعقول والمنقول

للشاعر الكبير الأستاذ على الجندى
عميد كلية دار العلوم السابق وعضو مجمع اللغة العربية

تسلط الشيطان على ابن آدم :

يقول تعالى حكاية عن إبليس - عليه لعنة الله - : « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

قالوا فى تفسيره : « من بين أيديهم » يطمعهم فى العفو ، ويغريهم بالعصيان . « ومن خلفهم » يذكرهم مخلفين - أولادهم - ويحسن لهم جمع المال وتركه لهم . « وعن أيمانهم » يحبب إليهم الرياسة والثناء « وعن شمائلهم » يحبب إليهم اللهو واللذات .

وقد فسر قوم المعنى الأول ، فقالوا : « من بين أيديهم » جهة الدنيا . « ومن خلفهم » جهة الآخرة « وعن أيمانهم » الحسنات « وعن شمائلهم » أى يحثهم على طلب الدنيا ، ويؤيسهم من الآخرة ، ويثبطهم عن الحسنات ، ويغريهم بالسيئات.

فإن قلت : لم لم يقل : ومن فوقهم ومن تحتهم ؟ .

والجواب : لأن جهة فوق : جهة نزول الرحمة ، ومستقر الملائكة ، ومكان العرش والأنوار الشريفة ، ولا سبيل له إليها .

وأما جهة تحت : فلأن الإتيان منها ؛ يوحش ، وينفر عنه ، لأنها الجهة المعروفة بالشياطين ، فعدل عنها إلى ما هو أدعى إلى قبول وساوسه وأضاليله .

ويقول شقيق البلخى : ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد : من بين يدى ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى .

أما من بين يدى ، فيقول : لا تخف ؛ فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى »(١) .

وأما من خلفى : فيخوفنى الضيعة على أولادى ، فأقرأ : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها »(٢)

وأما من قبل يمينى : فيأتينى من جهة الثناء ، فأقرأ : « والعاقبة للمتقين »(٣) .

وأما من قبل شمالى : فيأتينى من قبل الشهوات ، فأقرأ : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون »(٤) .

سطوة المال :

مر زياد - وهو والى البصرة - بأبى العريان العدوى القرشى - وكان شيخاً مكفوفاً ذا لسن وعارضة شديدة - فقال أبو العريان : ما هذه الجلبة ؟ قالوا : زياد ابن أبى سفيان ! قال : والله ما ترك أبو سفيان إلا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمدا ! فمن أين جاء زياد ؟ .

فبلغ الكلام زيادا - وقال له قائل : لو سددت عنك فم هذا الكلب ! .

فأرسل إليه زياد بمائتى دينار مع رسول قال له : إن ابن عمك زيادا الأمير قد أرسل إليك مائتى دينار لتنفقها .

فقال أبو العريان : وصلته رحم ! إى والله ابن عمى حقا ! .

ثم مر به زياد من الغد فى موكبه ، فوقف عليه فسلم ! فبكى أبو العريان ؟ فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : عرفت صوت أبى سفيان فى صوت زياد ! .

فبلغ ذلك معاوية ، فكتب إلى أبى العريان :

ما ألبثتك الدنانير التى بعثت ... أن لونتك أبا العريان ألوانا
أمسى إليك زياد فى أرومته ... نكراً فأصبح ما أنكرت عرفانا
لله در زياد لو تعجلها ... كانت له دون ما يخشاه قربانا

---

(١) سورة طه / ٨٢ . (٢) سورة هود / ٦ . (٣) سورة القصص / ٨٣ .
(٤) سورة سبأ / ٥٤ .

فلما قرىء كتاب معاوية على أبي العريان ، قال : اكتب جوابه يا غلام :

أحدث لنا صلة تحيا النفوس بها قد كدت يابن أبي سفيان تنسانا
أما زياد فقــد صحت مناسبه عندى فلا أبتغى فى الحق بهتانا
من يسد خيراً يصبه حين يفعله أو يسد شراً يصبه حيثما كانا

قال الحسن البصرى : ثلاث كن فى معاوية ، لو لم تكن فيه إلا واحدة منهن ، لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء ، حتى ابتزها أمرها . واستلحاقه زياداً مراغمة لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » . وقتله حجر بن عدى ! فياويله من حجر وأصحاب حجر ! .

ذو الشهادتين :

نازع أعرابي النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى ناقة ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « هذه لى وقد خرجت إليه من ثمنها » فقال الأعرابى : من يشهد لك بذلك ؟ فقال خزيمة بن ثابت : أنا أشهد بذلك ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من أين علمت وما حضرت ذلك » ؟ قال : لا ، ولكن علمت ذلك ، من حيث علمت أنك رسول الله ، فقال : « قد أجزت شهادتك وجعلتها شهادتين » فسمى ذا الشهادتين .

أقل الأشياء :

قالوا : ليس فى الناس شىء أقل من ثلاثة أشياء : البيان الحسن ، والصوت الحسن ، والصورة الحسنة .

سكرة الملك :

كان عبد الملك بن مروان قبل الخلافة ، يلقب بحمامة المسجد ، لقبه به ابن عمر . وقيل : إنه قيل لابن عمر : لو تفانى أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فمن نسأل بعدهم ؟ فقال : سلوا هـذا الفتى ! . وقد جاءته الخلافة ـ وهو يقرأ فى المصحف ـ فطبقه وقال : سلام عليك ! هذا فراق بيني وبينك ! .

وقعة الحرّة :

يقول ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » : كان الأقباط والأنباط فى وقعة الحرة يدخلون على نساء قريش ، فينتزعون خمرهن من رءوسهن ، وخلاخلهن من أرجلهن ، وسيوفهم على عواتقهم ، وكتاب الله تحت أرجلهم !

مأدبة الله :

جاء فى الحديث الشريف : « إن القرآن مأدبة الله » .

وروى عن ابن مسعود : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته » .

مأدبة ـ بفتح الدال وضمها ، والضم هو الأشهر ـ قال أهل العلم : معناه ، مدعاة الله ، وليس من الأدَب ـ بفتح الدال ـ وإنما هو من الأدْب ـ بسكون الدال ـ وهو الدعاء إلى الطعام . وعن أبى زيد : المأدبة ـ بالضم : الطعام ، وبالفتح : الأدب . وقال أبو عبيدة : من قال فى الحديث مأدبة ـ بالضم ـ أراد به الصنيع ، يصنعه الرجل فيدعو إليه الناس . شبه القرآن بصنيع صنعه الله ـ تعالى ـ للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليه .

من قال : مأدبة ـ بالفتح ـ أراد مفعلة من الأدب .

ثم قال : والتفسير الأول : أعجب إلى .

قال المبرد : وأكثر المفسرين قالوا : القول الأول ، وكلاهما فى العربية جائز .

ويدل على الأول قول الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : أنا الجفنة الغراء : أى التى يجتمع عليها الناس ، ويدعون إليها .

ويقال فى الدعوة : أدبه يأدبه ـ من باب ضرب ـ أدبا ـ بسكون الدال ـ : إذا دعاه ، قال الشاعر :

وما أصبح الضحاك إلا كخالع عصانا فأرسلنا المنيـة تأدبه

ويقال : أدب ـ كطرب ـ إذا صنع مأدبة .

رَهبوت خير من رحموت :

كان العرب يقولون : رهبوت خير من رحموت : أى من خافك كان أطوع

لك ممن يودك ، لأن بالخوف يطيعك جبراً ، وبالود إن شاء أطاع ، وإن شاء امتنع .
وهذا المعنى جاء به المتنبي فى قوله :

إذا لم تجزهم دار قوم مودة أجاز القنا والخوف خير من الود

مدح المتساوى فى الفضائل :

قال جعفر الضبى فى الحسن بن سهل : أيها الأمير . أسكتنى عن وصفك ، تساوى أفعالك فى السؤدد ، وحيرنى فيها كثرة عددها ، فليس إلى ذكر جميعها سبيل ، وإن أردت وصف واحدة اعترضت أختها ، إذ لم تكن الأولى أحق بالذكر ، ولست أصفها إلا بإظهار العجز عن وصفها .

أفرس الصحابة وأشجعهم :

قالوا لم يكن فى عصر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فارس أشجع من الزبير ولا راجل أشجع من على .

المجانين العقلاء :

قالوا : ثلاثة يعدون فى المجانين وإن كانوا عقلاء : الغضبان ، والسكران ، والغيران.

أول من صلب فى الإسلام :

أول من صلب فى الإسلام : عقبة بن أبى معيط ، صلبه رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى قصة معروفة .

الصديق والعدو :

قيل : سمى الصديق صديقاً ، لصدقه فيما يدعيه من المودة .
وسمى العدو عدواً ، لعدوانه عليك إذا ظفر بك .

أصناف الناس :

قال سلمان ـ رضى الله عنه ـ : الناس أربعة أصناف : آساد ، وذئاب ، وثعالب ، وضأن . فالآساد : الملوك ، والذئاب : التجار ، والثعالب : القراء المخادعون ، والضأن : المؤمن ينهشه كل من يراه .

خفاء الصواب :

إن من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب ، ومدبر مربوب ، أن يتبلد رأيه فى بعض الخطوب ، ويعمى عليه الصواب المطلوب !.

أول من أخلف المواعيد :

قال الثعالبى : أول من أخلف المواعيد وكذبها ، ولم يف بشىء منها : إسماعيل ابن صبيح كاتب الرشيد ! وما كانت الرؤساء قبل ذلك يعرفون المواعيد الكاذبة .

خطيب الشيطان :

كان يزيد بن أسد القسرى - جد خالد القسرى الدعى المخنث - يلقب بخطيب الشيطان ، وكان أكذب الناس فى كل شىء ، معروفا بذلك ! ثم نشأ ابنه عبد الملك ، فسلك منهاجه ، ثم نشأ حفيده خالد ، ففاق الجماعة فى الكذب .

المدح بالكرم والأدب :

قال بعض الشعراء مادحا :

لو لم يزره الورى لنائله زاروه من حاجة إلى أدبه

من فضائل الإمام على :

قال الإمام على : « بعثنى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى اليمن ، فقلت : يا رسول الله ، أتبعثنى وأنا شاب ، وهم كهول ؟ ولا علم لى بالقضاء ؟ قال : انطلق فإن الله - عز وجل - سيهدى قلبك ، ويثبت لسانك .

قال على : فوالله ما تعاييت[1] فى شىء بعد » . وروى أنه قال : « اللهم اهد قلبه ، فما شككت فى قضاء بين اثنين حتى جلست مجلسى هذا » .

وروى ابن عباس قال : خطبنا عمر - رضى الله عنه - فقال : على أقضانا ، وأبىّ أقرؤنا ، وإنا لنترك أشياء من قول أبى .

وقال سعيد بن المسيب : كان عمر يتعوذ من معضلة ليس فيها أبو حسن ، ومن قوله : لا يفتين أحد فى المسجد وعلى حاضر .

(١) تعايا بالأمر : لم يهتد لوجه مراده ، أو عجز عنه ، ولم يطق إحكامه .

وقال ابن عباس : أعطى على تسعة أعشار العلم ، وإنه لأعلمهم بالعشر الباقى !.

وقيل له : أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة المطر إلى البحر المحيط .

وقد صرح ابن عباس - ويلقب بترجمان القرآن - بأن كل علمه فى التفسير أخذه من على .

وقال مسروق : انتهى العلم إلى ثلاثة : عالم بالمدينة ، وعالم بالشام ، وعالم بالعراق ، فعالم المدينة : على بن أبى طالب - عليه السلام - وعالم العراق : عبد الله بن مسعود ، وعالم الشام : أبو الدرداء . فإذا التقوا سأل عالم الشام وعالم العراق ولم يسألهما !.

وقال عبد الملك بن أبى سليمان : قلت لعطاء : أكان من أصحاب النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - أحد أعلم من على ؟ قال : لا والله ما أعلمه !.

ذكر النساء فى الشعر :

كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - نهى الشعراء عن ذكر النساء فى أشعارهم ، لما فى ذلك من الفضيحة ، فكان الشعراء يكنون عن النساء بالشجر وغيره ، ولذلك قال حميد بن ثور الهلالى :

وهل أنا إن عللت نفسى بسرحة   من السرح مسدود على الطريق

أبى الله إلا أن سرحة مالك   على كل أفنان العضاة تروق

وقال الأحوص :

ألا يا نخلة من ذات عرق   عليك ورحمة الله السلام

الغناء بالمدينة :

كانت المدينة المنورة مدينة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - مركزاً هاماً من مراكز الغناء ، ومدرسة من مدارسه فى الدولة الأموية ! وكانت الجمهرة العظمى من مغنيات المدينة فى أول الأمر منهن . وقد اجتلب عبد الرحمن الأوسط الأموى عدداً كبيراً من جوارى المدينة ، وخصص لهن داراً فى قصره ، سماها : دار المدنيات .

رأى فيلسوف رجلا جاهلا جالساً على حجر ، فقال : هو ذا حجر على حجر !.

رثاء موجز بليغ :

مرت امرأة جعفر البرمكى عليه وهو مصلوب ، فقالت : لئن صرت اليوم آية ، فقد كنت بالأمس غاية ! .

الرأى السديد :

حينما هم المأمون بقتل إبراهيم بن المهدى الذى خرج عليه ، استشار أصحابه فى ذلك ، فأشار جميعهم بقتله ، ثم حضر أحمد بن أبى خالد ، فقال له : ما ذا تقول أنت ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : إن عاقبت فلك نظير ، وإن صفحت فلا نظير لك ! فاستحسن الخليفة كلامه ، وأخذ به ! .

منزلة الأخ :

أمر الحجاج بقتل زوج امرأة وأخاها وابنها ، فجاءت الزوجة إليه ضارعة ، وسألته أن يعفو عنهم ، فقال : قد عفوت لك عن واحد منهم فاختاريه ! .

ففكرت قليلا ، ثم قالت : الزوج موجود ، والابن مولود ، والأخ مفقود . اختار الأخ ، فأعجب بها الحجاج ، وعفا لها عنهم جميعاً ! .

أجوبة الصديقين :

قيل للإمام على - عليه السلام - كم بين السماء والأرض ؟ قال : دعوة مستجابة . قيل : فكم بين المشرق والمغرب ؟ قال : مسيرة يوم للشمس .

غلام نجيب :

صنع عدى بن حاتم الطائى مأدبة ، وقال لولده - وكان صبيا - : أقم على الباب ، وأذن لمن تعرف ، وامنع من لا تعرف ، فقال : والله ، لا يكن أول شىء وليته من أمر الدنيا ، منع أحد عن الطعام . فقال عدى : والله يا ولدى ، أنت أكرم منى وأفطن ! افتحوا الباب ، لمن شاء فليدخل .

العلم أقوى من الشهادة :

يجوز للحاكم أن يحكم بعلمه من غير شهادة ، لأن علمه أقوى من الشهادة ، ولهذا كان الإقرار أقوى من البينة ، من حيث كان أغلب فى تأثير غلبة الظن ، وإنما

قدم الإقرار على الشهادة لقوة الظن عنده ، فأولى أن يقدم العلم على الجميع ، وإذا لم يحتج مع الإقرار إلى شهادة لسقوط حكم الضعيف مع القوى ، لا يحتاج أيضاً مع العلم إلى ما يؤثر الظن من البينات والشهادات .

مادة بطن :

المبطان : الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل . والمبطن ـ كمنبر ـ : الضامر البطن . والبطين العظيم البطن لا من الأكل . والبطن ـ بفتح الباء وكسر الطاء ـ : الذى لا يهمه إلا بطنه . والمبطون : العليل البطن .

المسوخ لا يعقب :

فى الحديث الشريف : « ما مسخ أحد قط ، فكان له نسل ولا عقب » . رواه أبو يعلى الموصلى .

مطية الكذب :

فى الحديث الشريف : « بئس مطية الرجل زعموا » شبه الرسول الكريم ، ما يقدمه المتكلم أمام كلامه ، ويتوصل به إلى غرضه من قوله : زعموا كذا وكذا ، بالمطية التى يتوصل بها إلى الحاجة . وإنما يقال : زعموا فى حديث لا سند له ، ولا ثبت فيه ، وإنما يحكى على الألسن على سبيل البلاغ ، فذم من الكلام ماهذا سبيله . وفى الكشاف وغيره : أن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « زعموا مطية الكذب » .

وقال ابن عمر وشريح : لكل شىء كنية ، وكنية الكذب : زعموا .

وقال ابن عطية : ولا يوجد « زعم » مستعملة فى فصيح الكلام ، إلا عبارة عن الكذب ، أو قول انفرد به قائله ، وتبقى عهدته على الزاعم ، ففى ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم .

وقال سيبويه : زعم الخليل كذا ، إنما يجىء فيما تفرد به الخليل .

الشعر فوق النثر :

قال التهامى :

ولست أنكر قدر الشعر إن به نقل المآثر عن عاد وعن إرم

خير المناقب ماكان البيان له سلكا وفصل بالأمثال والحكم

وقال غيره :

وإنى بمنثور الكلام لعالم ولكن حسن الدر فى أن ينظما

فجور زياد بن أبيه :

أخرج الخوارج معهم امرأة ، فلما ظفر بها زياد بن أبيه ، قتلها ثم عراها !. فلم تخرج النساء بعد عليه ! وكن إذا دعين للخروج ، قلن : لولا التعرية لسارعنا !.

معرة النعمان :

معرة النعمان : بلدة صغيرة بالشام بالقرب من حماه وشيزر ، وهى منسوبة إلى النعمان بن بشير الأنصارى ، فإنه تديّرها ، فنسبت إليه ، ونسب إليها المعرى .

المدح الصادق :

قال الأبيوردى :

وصدّق قولى فيك أفعالك التى أبت لقريضى أن أوشحه كذبا

وأودع الدهر من شعر أحبّره مدائحاً لم توشح بالأكاذيب

من عادات الأصمعى :

كان الأصمعى : لا ينشد ولا يفسر ماكان فيه ذكر الأنواء ؛ لقول الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا ذكرت النجوم فأمسكوا » لأن العرب كانت تقول : مطرنا بنوء كذا وكذا . والنهى : إنما هو عن اعتقاد التأثير ، فلا حق للأصمعى فى امتناعه عن تفسير ماذكر فيه الأنواء ! . والنوء : سقوط نجم فى المغرب ، وطلوع آخر بالمشرق . وكذلك كان لا يفسر شعراً يوافق تفسيره شيئاً من القرآن . هكذا يقول أصحابه .

الشعر وحى :

قال حسان بن ثابت :

وقافية عجت بليل رزينة تلقيت من جو السماء نزولها

وقال الأسمر :

والشعر وحى ولكن يُوحَى لغير نبى

وقال كاتب هذه السطور :

هو الوحى أو كالوحى فاقدر جلاله وصن قدسه واشكر للملهم المبدا

يكسر الشعر :

أنشد إبراهيم بن هانىء هذا البيت :

جنونك مجنون ولست بواجد طبيباً يداوى من جنون جنون

ويقول الجاحظ : وكان إبراهيم لا يقيم شعراً ، ولا أدرى كيف أقام هذا البيت ؟ وكان يدعى بحضرة أبى إسحاق علم الحساب والهندسة والكلام واللحوق ، وأنه يقول الشعر ، فقال أبو إسحاق : نحن لم نمتحنك فى هذه الأمور ، فلك أن تدعيها عندنا ، ولكن كيف صرت تدعى قول الشعر ، وأنت إذا رويته لغيرك كسرته ؟ ! قال : فإنى هكذا طبعت أن أقيمه إذا قلت ، وأكسره إذا أنشدت ! . فقال أبو إسحاق : ما بعد هذا الكلام كلام .

خليفة أحمق :

كان الخليفة القاهر بالله العباسى طائشا ، سفاكا للدماء مدمنا للسكر ! وكانت له حربة يأخذها بيده فلا يضعها حتى يقتل إنساناً ! ولولا وجود الحاجب « سلامة » لأهلك الناس ! ومن مساوئه : أنه قبض على أم المقتدر زوجة أبيه ، وطالبها بمال لم تقدر عليه ، فهددها وضربها بيده ، وعذبها بأنواع العذاب ، وعلقها منكسة ، حتى كان بولها يجرى على وجهها ، وهى تقول له : ألست أمك فى كتاب الله ؟ وخلصتك من ابنى فى المرة الأولى ، وأنت تعاقبنى بهذه العقابة ؟ ولم يبق عندنا مال ! ثم إنها ماتت عقب ذلك ، فرحمها الله ! ولا رحمه الله ! .

قيد من ذهب :

كان الخليفة العباسى فى مصر ، يلبس السلطان بيده خلقة سوداء ، وعمامة سوداء ، وطوقاً فى عنقه من ذهب ، وقيداً فى رجليه من ذهب . ويفوض إليه الأمور فى البلاد الإسلامية ، وما سيفتحه من البلاد ، ويلقبه : بقسيم أمير المؤمنين .

كراهة الخمول :

قالوا : ولسقوط الخامل من عيون الناس ، قالت الأعرابية لابنها : إذا جلست مع الناس ، فإن أحسنت أن تقول كما يقولون فقل ، وإلا فخالف تذكر .

وأما الأصمعي فزعم أنها قالت له : خالف ولو بأن تعلق أير حمار فى عنقك ! .

وروى : أن رجلا قال لصاحب له : أبوك الذى جهل قدره ، وتعدى طوره ، فشق العصا ، وفرق الجماعة ، لا جرم لقد هزم ، ثم أسر ، ثم قتل ، ثم صلب ! . فقال له صاحبه : دعنى من ذكر هزيمة أبى ، ومن أسره ، وقتله ، وصلبه . أبوك هل حدَّث نفسه بشيء من هذا قط ؟ .

عذر أقبح من الذنب :

جمع الأمير قرواش بن المقلد العقيلي صاحب الموصل ، بين الأختين فى الزواج ! فلامته العرب على ذلك ، فقال : خبرونى ما الذى نستعمله مما تبيحه الشريعة ؟ فكان عذره أقبح من ذنبه ، ونعوذ بالله من مسخ الطبيعة ، وعمى البصيرة ! .

غريب القرآن :

يقول المرحوم صادق الرافعي : فى القرآن ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة ، كما رأيت فى باب اللغة ، فإن القرآن منزه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغريبة ههنا هى التى تكون حسنة فى التأويل ، بحيث لا يتساوى فى العلم بها سائر الناس . وجملة ما عدوه من ذلك فى القرآن كله ، سبعمائة لفظة أو تزيد قليلا ، وجميعه روى تفسيره بالسند الصحيح عن ابن عباس ، وهو ذلك المعجم الحى الذى كانوا يرجعون إليه .

جبريل :

جبريل : لفظ مركب من جبر ، ومعناه : عبد ، وإيل ، معناه : الله ، وعلى ذلك فجبريل : عبد الله . وقد سمى جبريل فى القرآن الكريم « بالروح الأمين » : « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » . وبروح القدس : « نزل به روح القدس من ربك بالحق » ، « وآتينا عيسى بن مريم

البينات وأيدناه بروح القدس » . وذكر كذلك باسمه : « من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله » .

اتقوا الله فى أشياء :

قال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « اتقوا الله فى الصلاة ، اتقوا الله فى الصلاة ، اتقوا الله فى الصلاة ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، اتقوا الله فى الضعيفين : المرأة الأرملة ، والصبى اليتيم » .

لم يهم يوسف :

قال تعالى فى قصة يوسف مع زليخا امرأة العزيز : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » أحسن مايقال فى هذا : أن « لولا » فى أمثال هذه المواقع جارية من حيث المعنى لا من حيث الصنعة مجرى التقييد للحكم المطلق ، كما فى مثل قوله - تعالى - : « إن كان ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها » فلا يتحقق هناك همٌ أصلا . وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام أو أن يكون « وهم بها » جواب « لولا » جرياً على قاعدة الكوفيين فى جواز التقديم ، وتابعهم على ذلك أبو زيد الانصارى ، وأبو العباس المبرد ، ويكون المعنى : لولا مشاهدة البرهان ، لجرى على موجب ميله الجبلى ، لكنه حيث كان مشاهداً له ، استمر على ماهو عليه من قضية البرهان . وفى البحر : أنه لم يقع منه همّ - عليه السلام - بها البتة ، بل هو منفى لوجود رؤية البرهان ، كما تقول : قارفت الذنب ، لولا أن عصمك الله - تعالى - . وهذا هو اللائق بمقام « الصديق » عليه السلام ، الذى وصفه الله - تعالى - بقوله : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » وعباد الله المخلصون فوق متناول إبليس بشهادة إبليس نفسه : « لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » وما قيل غير ذلك ، فهو مُزرٍ بمقام الأنبياء ، وهو من كلام الحشوة غير المحققين ا.

ضلال عالم :

كتب أبو منصور المظفر العبادى ، الواعظ المروزى ، الملقب : قطب الدين الأمير رسالة فى إباحة شرب الخمر ا انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١٧٣ ط قديمة .

لا تقطعوا السدر :

جاء فى الحديث : « قاطع السدر يصوب الله رأسه فى النار » « من الله - تعالى - لا من رسوله : لعن الله قاطع السدر » الجامع الصغير .

والسدر : شجر النبق ، والواحدة : سدرة .

اتقوا الشعراء :

مدح شاعر على بن الحسين - عليه وعلى آبائه السلام - فأحسن عطيته ، فعوتب فى ذلك ، فقال : أترونى خفت أن يقول : إنى لست ابن فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا ابن على بن أبى طالب ! ولكن خفت أن يقول : لست كرسول الله ، ولست كعلى ، فيصدق ويحمل عنه ، ويبقى مخلداً فى الكتب ، ومحفوظا على ألسنة الرواة . فقال الشاعر عند سماعه هذا الكلام النفيس : أنت - والله يا بن رسول الله - أعلم بالمدح والذم منى .

معجزة القرآن :

القرآن بجملته معجزة ، وكذلك سوره وآياته ، قال الإمام مجد الدين فى « نهاية العقول » : التحدى وقع مرة بالقران ، كقوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ومرة بعشر سور ، كقوله تعالى : « فأتوا بعشر سور » ومرة بسورة ، كقوله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » ومرة بآية ، كقوله تعالى : « فليأتوا بحديث مثله » وذلك نهاية التحدى ، كقول الرجل لمن يفاخره : هات قوماً كقومى ! هات كنصفهم ! هات كربعهم ! هات كواحد منهم .

وأقصر سورة منه سورة الكوثر ، فهى ثلاث آيات ، ثم سورة العصر ، وهى ثلاث آيات ، ولكنها أطول باعتبار الحروف والكلمات فى عددها ، ثم سورة الإخلاص ، وهى أربع آيات ؟

حول دعاوى بعض المستشرقين ورجاء إلى علماء المسلمين

للأستاذ الدكتور لبيب السعيد
المدير العام لشئون القرآن بوزارة الأوقاف

إلمامة عن اختلاف القراءات :

١ — بين القراءات القرآنية اختلافات توقيفية يسيرة ، محصورة كلها ، ومضبوطة ، ومعلومة ، ولا زيادة فيها ولا نقص ، ولا تقديم فيها ولا تأخير ، وهى كلها لا تجهد عامة الناس ، فى الفهم والتدبر ، فضلا عن أن تجهد الدارس المدقق ، أو القارىء المتخصص .

والقراءات الثابتة القرآنية منزلة كلها من عند الله ، أو مأذون فى قراءتها من الله ، فقد تواترت تواتراً مقطوعاً به ، وشاملا للأصول والفرش ، عن نفس الرسول الذى أوتى القرآن ، وكلف إبلاغه للعالمين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وقد قرأ بها المسلمون منذ كان الوحى ، ويستحيل عقلا أن يكونوا قد أمضوا القرون وهم يقرأون غير ما أنزل الله سبحانه .

وإذا كانت القراءات والروايات القرآنية قد أضيفت إلى قراء ورواة بأعيانهم ، فهذا لا يعنى إلا أن المضاف إليه اختار قراءة أو رواية ، وكان أضبط لها وأدوم ، وألزم قراءةً وإقراءً بها حتى نسبت إليه أو نسب إليها ، فهى ـ كما يقرر ابن الجزرى العالم الأشهر فى القراءات ـ إضافة اختيار ودوام ولزوم ، لا إضافة اختراع ورأى واجتهاد ، ومن هنا كان اختلاف القراء ـ عند المسلمين ـ صواباً بإطلاق ، وليس كاختلاف الفقهاء يعتبر ـ حتى عند أصحابه ـ صواباً يحتمل الخطأ .

٢ — ورأس الأسباب فى اختلاف القراءات هو أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، كما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما أثبت أحد وعشرون صحابياً روى عنهم البخارى ومسلم ، وآخرون .

ونزول القرآن على سبعة أحرف كان من أسبابه : التيسير على الناس ، حيث كان العرب ، على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن اتحدت لغتهم الأم ، شعوبا وقبائل مختلفة اللهجات ، والمعروف أنه يصعب على الفرد عادة أن يستبدل بلهجته لهجة أخرى جديدة . روى الترمذى ـ فى هذا الشأن ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ياجبريل ! إنى بعثت إلى أمة أميين : فيهم العجوز ، والشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية ، والرجل الذى لم يقرأ كتاباً قط .

ومن الأسباب أيضاً مسايرة الاختلاف فى طريقة الأداء ، وفى نبرات الصوت : فقد كان من العرب ـ فى فجر الاسلام ـ من يدغم ومن يظهر ، ومن يخفى ومن يبين ، ومن يميل ومن يفتح ، ومن يفخم ومن يرقق ، ومن يمد ومن يقصر ، إلى آخر كيفيات النطق المختلفة .

وسبب ثالث يرجع إلى ذات القرآن ، هو اختلاف بعض ألفاظه من حيث الغيبة والخطاب ، والتذكير والتأنيث ، والجمع والإفراد ، والتخفيف والتشديد .

افتراءات المستشرقين :

١ ــ هذه الحقائق الواضحة ينكرها بعض المستشرقين ، بغير علم ولا هدى ، بل بخبث قصد ، وبجرأة على الحق ، وبعداوة للإسلام . ومن أساليبهم ـ فى هذا الشأن ـ أنهم يسحرون أعين الناس وعقولهم ، فيخيلون إليهم أن العلمية هى الوسيلة وهى الغاية ، بينما الأمر غير هذا .

وأشهر من تولى كبر هــــذا العدوان من المستشرقين : تيودور نولدكه F. Nœledeke وإجناتس جولد سيهر Goldziher Ignacz وآرثر جفرى Arthur Jeffery ، واللافت أنهم جميعا من غير المسلمين .

والمؤلم والمثير أن آراءهم استخفت بعض الدارسين المسلمين ، فروّجوا لهـا ، بل إن بعضهم انتحلها اعتقاداً منه بعظم قدرها .

٢ ــ وأقدم أولئك الثلاثه : نولدكه ، الذى يصفه جولد سيهر بأنه زعيمه ، والذى وضع فى تاريخ القرآن كتاب : Gechichte des Qoıans ، وهو كتاب

فتَح به صاحبه للطاعنين على القراءات باباً، ومهد لهم مهاداً، ويقول جفرى عن هذا الكتاب إنه أساس كل بحث فى القرآن فى أوربا.

ويقول نولدكه إنه يرتاب فى أكثر ما يتعلق بالقرآن من الروايات والأحاديث وأقوال المفسرين، وحيلتنا مع نولدكه هنا قليلة، فهو فعلا يطرح جانباً كل السنة الصحيحة الموثقة، والتفسير المستقيم المعقول، ثم إذا عثر على رواية ضعيفة أو شاذة أو باطلة أو منكرة، فهو - عندئذ - يجعلها العمدة، ويتخذها الدليل.

ومن أضل ما ذهب إليه هذا المستشرق إنكار قرآنية بعض ألفاظ القرآن: فمثلا، أوائل بعض السور ليست - فى زعمه - إلا حروفا أولى أو أخيرة مأخوذة من أسماء بعض الصحابة الذين كانت عندهم نسخ من سور قرآنية معينة، وعلى سبيل المثال لما يدعيه: السين: من سعد بن أبى وقاص!، والميم: من المغيرة!، والنون: من عثمان بن عفان!، والهاء: من أبى هريرة!... وهكذا.

وهذا كله من الناحية الواقعية ادعاء مُفترى، وقول لا أساس له، ولا دليل عليه، وهو يعنى شيئاً باهظاً لا يمكن أبداً أن يسيغه عقل عاقل، وهو أن الأمة الاسلامية صحابةَ نبيِّها، وتابعيهم، وتابعى تابعيهم، ورواتها، وعلماءَها، وكلُّ أبنائها فى المشارق والمغارب، وعلى مدى تاريخهم الطويل، وبأعدادهم التى لا تحصى، كذابون ومجترئون، تواطئوا ضد كتابهم، وجاءوا فيه بأشياء من عند أنفسهم(١).

٢ — وربما كان شر الثلاثة - من وجهة النظر الإسلامية - جولد سيهر صاحب كتاب «مذاهب التفسير الاسلامى» فقد سبق زعيمه فى حلبة الكيد للقرآن.

وقد أخطأ جولد سيهر - مثلما يخطىء أغلب المستشرقين - فى فهم النصوص القرآنية، واشتبه عليه المتواتر من القراءات بالفاذ، والمشهور بالشاذ، ومن وراء ذلك، كان منهجه ملتويا منحازا، فقد كان مبلغ همه أن يجد شيئاً يستطيع به - ولو بالتدليس - أن يدلل على أن الاختلاف فى القراءات ليس عن توقيف ورواية، وإنما عن هوى من القرّاء، ولذلك، فإنه - بعكس المسلمين - لم يأخذ، فى الحكم

(١) أنظر فى الرد على مثل هذه الدعاوى: لبيب السعيد: الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم - الفصل الثانى ص ١٦١ - ٢١٨.

على روايات القرآن، بالسند الصحيح الممحص، والتواتر المفصل الثابت، وابتكر من لدنه ضلالات كثيرة، واعتضد أحياناً بما لا يجوز علمياً الاعتضاد به، ولم يذعن للقاعدة الاسلامية الموثقة والمتبعة : قاعدة أن القراءة - منذ نزول القرآن - سنة يأخذها الآخر عن الأول، شفاهاً، فماً لفم.

ومن أخطاء جولد سيهر أنه يُرجع اختلاف القراءات إلى أسباب أهمها - كما ذكر أحد العرب الآخذين عنه والمنتحلين فكرته - « مسائل ظهرت بعد نزول الوحى، من خاصية القلم الذى دون به القرآن الكريم، فرسم أكثر حروف هذا القلم متشابه، والمميز فيها هو النقط الذى لم يظهر إلا بعد نزول الوحى بأمد، وكان هذا القلم خالياً فى بادىء أمره من الحركات ».

ونبادر، فنردّ على هذا الزعم بأن الثابت المعقول هو أن تلق المسلمين للقرآن وحفظهم إياه كانا سابقين للتسجيل الكتابى، وحتى بعد الكتابة، ظل المعوّل عليه فى تبليغ القران هو التلقين الشفهى، وعند ما كتب عثمان المصاحف الأئمة، وبعث بها إلى الأمصار، جعل مع كل منها قارئاً ليقرىء الناس، فأمر زيد بن ثابت أن يقرىء الناس بالمدينة، وأرسل عبد الله بن السائب إلى مكة، وعامر بن عبد قيس إلى البصرة، وأبا عبد الرحمن السلمى إلى الكوفة، والمغيرة بن شهاب إلى الشام.

وقد ضرب جولد سيهر أمثلة للاختلاف نتيجة عدم النقط، فجاء هو نفسه بما ينقض دعواه :

قال إن كلمة « تستكبرون » فى قوله تعالى : « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون »[١]. قرئت : « تستكثرون » بالثاء المثلثة[٢].

ونحن المسلمين نعلم أن القراءات السبع المتواترة والثلاث المشهورة بل الاربع الشاذة لا تعرف هذه القراءة المزعومة، مع أنها ممكنة لو كان الأمر أمر النقط بحسب الفهم الخاص. وهكذا يشهد جولد سيهر - من حيث لم يقصد - على رأيه بالبطلان.

(١) سورة الأعراف / ٤٨.

(٢) مذاهب التفسير الإسلامى ص ٩ من الترجمة العربية.

ومثل ثان ضربه هذا المستشرق ليعزز به دعواه هو لفظ « بُشرا » فى قوله سبحانه : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته »(١) . فقد قرئت « نشراً » بالنون بدل الباء (٢) .

وقد تواترت عند عاصم بالباء الموحّدة المضمومة وإسكان الشين ، أى بجمع « بشير » كنذير ونذر .

وتواترت عند ابن عامر بالنون مضمومة وبإسكان الشين، وهى مخففة من قراءة الضم.

وتواترت عند حمزة والكسائى وخلف بالنون المفتوحة وسكون الشين ، بمعنى ناشرة ، أو منشورة ، أو ذات نشر .

وتواترت عند نافع وابن كثير وأبى عمرو وأبى جعفر ويعقوب بضم النون والشين ، جمع ناشر ، كنازل ونزُل . وشارف وشُرُف(٣) .

فهيئة الرسم إذن ليست هى المرجع فى صحة القراءة كما يدعى جولد سيهر ، وإنما المرجع على الحقيقة كما يقرر المسلمون هو تواتر الرواية .

ومثلٌ ثالث يسوقه هذا المستشرق ، هو كلمة : « إيَّاه » فى قوله عز وجل : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه »(٤) ، فقد قرئت : « أباه »(٥) .

ومع أن فى الإمكان النطق بهذا اللفظ بالباء بدل الياء فيما لو كان المعول على الخط وحده ، فإن قراء المسلمين جميعا يقرأون بالياء ، ويتفقون على أن قراءة الباء منكرة .

ويزعم جولد سيهر أن بعض القراء كانوا يغيرون القراءات بما ترضاه مقاصدهم ، وتسيغه أفهامهم وأذواقهم .

ففى قوله تعالى : « يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم . . . »(٦) ، يذكر جولد سيهر أن قتادة رأى أن الأمر بالقتل هنا

(١) سورة الأعراف / ٥٧ . (٢) مذاهب التفسير الإسلامى ، نفس الصحيفة .
(٣) انظر مثلا : الدمياطى البنا : إتحاف فضلاء البشر ص ٢٢٦ .
(٤) سورة التوبة / ١١٤ . (٥) مذاهب التفسير الإسلامى ، نفس الصحيفة .
(٦) سورة البقرة / ٥٤ .

شديد القسوة وغير متناسب مع الخطيئة ، فقرأ : « فأقيلوا »[١] ، ويقول جولد سيهر إنه يرى فى هذا المثال : « وجهة نظر موضوعية شاركت فى سبب اختلاف القراءة »[٢] .

ولا نرى علينا من حق لجولد سيهر فى أن نناقش دعواه هذه ، فهى مرفوضة أصلا ، لأن « فأقيلوا » ليست من القراءات المتواترة ، ولا من القراءات المشهورة ، ولا حتى من الأربع الشواذ .

وقد ساق جولد سيهر طائفة أخرى مماثلة من الدعاوى ، وقد تعقبها كلها بالتفنيد مترجم كتاب « مذاهب التفسير الإسلامى » المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار ، الذى نبه ـ أحسن الله جزاءه ـ إلى أهم النزعات الدينية التى « لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب المستشرقين ، لا سيما فيما يتصل من الدين بسبب أو نسب ، يمليها عليهم إلف ملازم ، أو هوى متبع ، أو قصد جائر »[٣] ، وأشار ـ رحمه الله ـ إلى « أن هناك أخطاء يتورط فيها المستشرقون لغرابة المادة العربية والاسلامية على تفكيرهم ، أو لقلة بصرهم بالذوق العربى ، وعجزهم عن التغلغل فى أسرار اللسان ومسالك البيان »[٤] .

أما آرثر جفرى ، وهو أحدث الثلاثة تاريخا ، فنى مقدمته لكتاب « المصاحف لابن أبى داود » بعنوان :

Materials for the history of the text of the Quran

يحاول هو الآخر ، معتضدا بدعاوى نولدكه وشولى Nœledeke A. Schwally وغيرهما ، تحريف تاريخ القرآن عن بعض مواضعه ، ويريد ليطفىء فى صدور المسلمين أنوار التقديس لكتابهم ، وليوهى اعتقادهم بتوقيفيته .

فهو يدعى ـ بغير بينة ـ أن القراءات تطورت على الأيام ، ومعنى هذا ـ فيما هو واضح ـ أن الله تعالى لم ينزل القراءات بالشكل المتواتر عند المسلمين ، وأن النبى

(١) نفس المصدر ص ١٠ و ١١ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر ص ٤ .
(٤) نفس المصدر ص ٥ .

صلى الله عليه وسلم لم يقرأ بها هكذا ، وأن صحابته وتابعيهم لم يتلقوها ولم يقرأوا بها هكذا .

وقد احتمى جفرى ببعض الروايات المنكرة والأحاديث الموضوعة مثلما فعل زميلاه نولدكه وجولد سيهر . وممن توارى جفرى خلفهم ابن أبي داود الذى كذبه أبوه نفسه فى أكثر من حديث .

ويدعو جفرى الباحثين المسلمين إلى شىء عجيب : يدعوهم ، لينهجوا نهج باحثى اليهود والنصارى الذين شكوا فى صحة كتبهم المقدسة ، والذين نجحوا - كما يعبر - فى كشف ما ورد على هذه الكتب من تغيير وتبديل ، وهو - فى هذا - يقول بقصد خبيث مكشوف :

« فسر فى أيامنا هذه علماء الشرق كثيراً مما يتعلق بتفسير القرآن ، وإعجازه ، وأحكامه ، ولكنهم إلى الآن لم يبينوا لنا ما يستفاد منه التطور فى قراءته ، ولا ندرى - على التحقيق - لماذا كفوا عن البحث فى عصر له نزعة خاصة فى التنقيب عن تطور الكتب المقدسة القديمة ، وعما حصل لها من التغيير والتحوير ، ونجاح بعض الكتاب فيها » .

ويَعِدُ جفرى المستجيبين لدعوته : دعوة بحث القرآن لاكتشاف « التغيير والتحوير » فيه ، يعدهم مثل ما أحرز الباحثون فى كتب اليهود والنصارى : ذيوعاً لمباحثهم ، ونصراً على مخالفيهم .

وهو يتكلم عن الباحثين فى كتب اليهود والنصارى ، فيقول إن طريقتهم فى البحث أن يجمعوا الآراء والظنون والأوهام والتصورات بأجمعها ، ليستنتجوا - بالفحص والاكتشاف - ما كان فيها مطابقاً للمكان والزمان وظروف الأحوال ، معتبرين المتن دون الإسناد ، ويجتهدون فى إقامة نص التوراة والإنجيل . . . الخ .

ونحن نرد على جفرى بأن القرآن غير الكتب السابقة ، فهو بلغنا كلمة كلمة ، بل حرفاً حرفاً ، بالتلقى الصحيح ، وبالرواية المتواترة التى تعنى أنه فى كل طبقة من طبقاتها يتوافر جمع من الناس يؤمن تواطؤهم على الكذب ، أو لا يتصور تواطؤهم عليه.

ويَرِدُ جفرى نفس المشرع المسموم الذى ورده جولد سيهر ، فيشير إلى الادعاء بأن المصاحف المكتوبة الأئمة - لخلوها من النقط والشكل - كانت تدعو القارىء - فيما بعد - أن يتولى بنفسه فقط قراءة النص القرآنى وضبطه بالشكل ، على مقتضى ما يفهمه هو من معانى الآيات ، وأورد جفرى مثلا لهذا كلمة « نعلمه » فقد كان الواحد - بزعم المستشرقين - يقرؤها : « يعلمه » ، والآخر : « نعلمه » ، والثالث : « تعلمه » ، والرابع : « بعلمه » . . . الخ (١) .

وقد قدمنا آنفا - ونحن نناقش جولد سيهر - أن هذا الرأى فاسد فيما يتعلق بالقرآن ، لأن المسلمين لم يعتمدوا - فى نقل القرآن - على خط المصاحف ، وإنما اعتمدوا على التلقى الشفهى ، ونضيف هنا أنهم اعتمدو أيضاً على حفظ القلوب والصدور ، وقد عُدَّ ذلك من أشرف خصائصهم « أناجيلهم فى صدورهم » ، ثم إن التبديل فى القرآن - على أى وجه وبأى شكل - ليس لأى مخلوق حتى ولو كان نبى الإسلام نفسه « وإذا تتلى عليهم ءاياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرءان غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم »(٢) ، « تنزيل من رب العالمين ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين » (٣) .

والاستقراء الموضوعى يؤدى إلينا أنه لم ينقل ، عبر القرون ، كتاب سماوى أو غير سماوى ، بالتواتر القطعى ، والإسناد الصحيح ، عن العدول الضابطين ، طبقة بعد طبقة ، مثلما وقع للقرآن ، وقد تلقوه عن النبى نفسه صلى الله عليه وسلم ، حرفاً حرفاً ، لم يهملوا منه حركة ، ولا سكونا ، ولا إثباتا ، ولا حذفا .

---

(١) مقدمة كتاب المصاحف ص ٧ .

(٢) سورة يونس / ١٥ .

(٣) سورة الحاقة / ٤٣ _ ٤٧ .

رجاء إلى علماء المسلمين :

أما بعـــد :

فالمستشرقون - بدعاويهم تلك - وهى دعاوى تجد أحياناً بين العرب والمسلمين من يصدقها ويروّجها ... المستشرقون بهذا يحاولون ضربنا فى مقتل ، يحاولون تشكيكنا فى قاعدة الاسلام وأساسه ، وأصل الأصول فى حياتنا إلى يوم القيامة .

ولهذا ، ألتفت التفات الآمل إلى علماء المسلمين فى كل مكان ، أرجوهم :

(١) التصدى العلمى العاجل لآراء المستشرقين بعامة ، وغير المسلمين منهم بخاصة ، حول القرآن ، والكشف عن حقيقة مقاصدهم ، وفساد مناهجهم ، مع دحض حججهم ، وإبطال دعاويهم .

(٢) تشجيع مقرئى الروايات القرآنية غير رواية حفص الذائعة فى مصر ، والتمكين لهم ولقراء هذه الروايات ، فى كل مجالات القراءة فى البلاد الاسلامية .

(٣) رفض الفكرة التى يدعو إليها الآن بعض المفكرين المسلمين ، والتى ترمى إلى طرح الروايات القرآنية المتواترة والمشهورة غير رواية حفص عن عاصم ، بقصد توحيد طريقة التلاوة ، وهو قصد غير سديد ، يحرم حلالا ، ويضيق واسعاً ، ويجنى على الكتاب العزيز ، ويحادّ السُّنة .

(٤) الإعلام ، بكل الطرق ، بأن الروايات القرآنية المتواترة والمشهورة كلها معجزة ، وكلها من عند الله ، ولا يجوز شرعاً المفاضلة بينها ، كما يحرم إهمال إحداها ، وكل مسلم مخير فى هذه الروايات .

(٥) توفير عدد التواتر الشرعى من الحفاظ لكل رواية من تلك الروايات ، فى كل مجتمع إسلامى ، صغر أو كبر ، وذلك بكل الطرق المستطاعة ، ومنها استكمال تنفيذ مشروع الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم ، وفق المخططات المرسومة له .

والله يبارك لنا فى القرآن العظيم ، ويهدينا الصراط المستقيم ؟

(١) نظر : لبيب السعيد : الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم وبواعثه ومخططاته ص ٢١٨ - ٢٢٤

حكم تارك الإسلام وفاعل الخير بلا إيمان

لفضيلة العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

من كبار علماء الإمامية ومؤلف التفسير الكاشف وفقه الإمام جعفر الصادق (ع)

---**---

بعد ما أنجزت موسوعة « فقه الإمام جعفر الصادق » عرضا واستدلالا ، في ستة أجزاء بلغت أكثر من ألفي صفحة ، شعرت بالغبطة لهذه النعمة الجلى . وما رأيت عبادة تؤدى شكرها للمنعم جل ثناؤه أفضل من بث الدعوة إلى كتابه بتمهيد السبيل إلى تفهم آياته ، ومعرفة دقائقها وأسرارها ، وإدراك أهدافها ومراميها . فباشرت بتفسير آى الذكر الحكيم ابتداء من سورة الفاتحة ، وأسميته « التفسير الكاشف » .

وحاولت جهدى أن يكون مرضيا لدى كل قارىء عصريا كان أو سلفيا ، بل ويقرأه برغبة وشوق ، ذلك بأن يشعر أنه لا يقرأ عن غيب بعيد عن حياته ، وإنما يقرأ عن نفسه وأسرته ومجتمعه ، يقرأ عن هذه الحياة وما فيها من مشكلات ، مع الحل السليم لكل مشكلة كبيرة كانت أو صغيرة .

حاولت جهدى أن يكون « التفسير الكاشف » مرضياً عند كل فئة مهما تكن وجهتها بأسلوب يجمع بين الإيجاز والوضوح ، وبمحتوى يُقنع القارىء ، أى قارىء بأن الدين مع حياة الإنسان ، ومن أجل الإنسان ، وكل ما هو بعيد عن الحياة فما هو من الدين فى شىء ، وأن أى إنسان كائناً من كان ويكون يدعو إلى حياة طيبة لا تعقيد فيها ولا مشكلات ، فإن دعوته هذه تلتقى مع دعوة الله والرسول ، أراد ذلك ، أو لم يرد . وهذه الحقيقة لا ينكرها إلا جاهل ، أو متحامل على

الدين وأهله بعد أن نص الوحي عليها بصراحة ووضوح ، وسجلها الله في كتابه ، حيث قال عز من قائل : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » ٢٤ / الأنفال . وإذا هنا ليست للشرط ، وإنما هي لبيان الموضوع وتقرره ، والترغيب في الاستجابة ، وأن دعوة الله والرسول لا تكون إلا للحياة.

وإلى جانب هذه الحقيقة وغيرها ، يجد قارىء التفسير الكاشف الأدلة الوجدانية والعقلية على أصول العقيدة الإسلامية ، مع الأجوبة عن كل شبهة أو تساؤل يمكن أن يمر بالذهن حول أية مسألة من مسائل هذه العقيدة .

وقد اخترت لرسالة الإسلام مسألتين من تلك المسائل الهامة ، وهما : حكم تارك الإسلام من غير عناد ومكابرة ، وحكم من فعل الخير لوجه الخير ، وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

حكم تارك الإسلام :

إن الدعوة إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كنبي مرسل من السماء إلى أهل الأرض ما زالت قائمة ، حتى اليوم ، وإلى آخر يوم ، وهي موجهة إلى جميع الناس في الشرق والغرب دون استثناء : « قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » ١٥٦ / الأعراف . أما الدليل على صدقها فمنطق العقل ، وثبوت المعجزة ، وصلاح الدين للحياة . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أصل ديني العقل » ، وقال تعالى في كتابه المنزل على نبيه المرسل : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » ٢٤ / الأنفال . وليس من غرضنا أن نستدل هنا على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنما الغرض أن نبين : هل من لم يؤمن بنبوة محمد مستحق للعقاب ، أو لا بد من التفصيل ؟ .

وقبل أن نفرق بين العالم والجاهل ، والقاصر والمقصر ، نشير إلى الأصول الرئيسية ، والمقاييس الأولى لاستحقاق العقاب وعدمه ، ومنها تتضح الحقيقة ، والتمييز بين الأفراد .

وقد تسالم الجميع على أن الإنسان كائناً من كان ، وعلى أى دين كان لا يستحق العقاب إلا بعد قيام الحجة عليه ، ولا تقوم الحجة عليه إلا بعد استطاعته على الوصول إلى دليل الحق ، وقدرته على العمل به ، ومع ذلك تركه من غير مبرر . فإذا لم يوجد على الحق دليل من الأساس ، أو وجد ، ولكن عجز الإنسان عن الوصول إليه ، أو وصل إليه ، وأدى حق النظر فيه ، حتى بلغ النهاية ، ومع ذلك خفى عليه الحق ، إذا كان كذلك فهو معذور لعدم إتمام الحجة عليه ، لأن من لم يثبت الحق لديه لا يعاقب على تركه إلا إذا قصر فيه .

وأيضاً من القواعد الرئيسية التى تتصل بهذا البحث قاعدة : « الحدود تدرأ بالشبهات » فلا يجوز لنا أن نحكم على تارك الحق بأنه مجرم يستحق العقاب ، ما دمنا نحتمل أن له عذراً فى تركه ، وهذه القاعدة تنطبق على جميع الناس ، لا على المسلمين فحسب ، كما أنها تشمل جميع الحدود بشتى أنواعها . ومثلها قاعدة : « من أخطأ فى اجتهاده فخطؤه مغفور له » وهذه القاعدة عقلية لا يمكن تخصيصها بدين دون دين ، أو بمذهب دون مذهب ، أو بأصل أو بفرع . إذا تمهد هذا نشرع بالتطبيق .

١ — أن يعيش الإنسان فى بلد ناء عن الإسلام والمسلمين ولم تبلغه الدعوة ، وما سمع باسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم مدة حياته ، ولا مر بخاطره من قريب أو بعيد أن فى الدنيا ديناً اسمه الإسلام ، ونبياً اسمه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وليس من شك أن هذا معذور من حيث عدم استحقاقه للعقاب ، لحكم العقل بقبح العقاب بلا بيان ، ولقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ١٥/الإسراء والعقل رسول باطنى ، ما فى ذلك ريب ، إلا أنه برهان مستقل على وجود الله ، أما الدليل على ثبوت نبوة النبى فلا بد من توسط المعجزة ، وظهورها على يده . مع حكم العقل باستحالة ظهورها على أيدى غير الأنبياء .

٢ — أن يسمع بالإسلام وبمحمد ، ولكنه يفقد القدرة على التمييز بين الحق والباطل ، لقصوره وعدم استعداده لتفهم دليل الحق ومعرفته ، وهذا معذور

لأنه تماماً كالطفل والمجنون . ومثله إذا لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم صغيراً تقليداً لآبائه ، وذهل عن عقيدته كبيراً ، واستمر مطمئنا إليها غير شاك ولا متردد ، وهذا معذور ، لأن تكليف الذاهل غير المقصر كتكليف النائم . قال المحقق القمي : إن التحرر من تقليد الآباء والأمهات لا يخطر على بال أكثر الناس ، بل يصعب غالباً على العلماء المرتاضين الذين يحسبون أنهم خلعوا التقليد عن أعناقهم . وقال يضاً : أن من لا يفطن لوجوب معرفة الأصول يلحق بالبهائم والمجانين الذين لا يتعلق بهم تكاليف [1] ، وقال الشيخ الأنصارى فى الرسائل : فصل الظن فى الأصول : « الذى يقتضيه الإنصاف بشهادة الوجدان تصور بعض المكلفين » وبهذا قال الكليني وقال الشيخ الطوسى : « العاجز عن التحصيل بمنزلة البهائم » .

أجل ، إذا تنبه هذا الغافل من نفسه إلى وجوب المعرفة ، أو قال له قائل : أنك مبطل فى عقيدتك ، ومع ذلك أصر ، ولم يبحث ويسأل فهو آثم ، لأنه مقصر وجهل المقصر ليس بعذر .

٣ — ألا يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، مع أن فيه الاستعداد الكافى الوافى لتفهم الحق ، ولكنه أهمل ولم يكترث إطلاقاً ، أو بحث بحثاً ناقصاً ، وترك قبل أن يبلغ النظر نهايته ، كما هو شأن الأعم الأغلب ، بخاصة شباب هذا الجيل ، وهذا غير معذور ، لأنه أخطأ من غير اجتهاد ، وتمكن من معرفة الحق وأهمل ، وبالأولى أن يؤاخذ ويعاقب من بحث واقتنع ، ومع ذلك رفض الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم تعصباً وعناداً .

٤ — أن ينظر إلى الدليل ، وهو متجه إلى الحق بإخلاص ، ولكن لم يهتد إلى الوجه الذى يوجب الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إما لتمسكه بشبهة باطلة دون أن يلتفت إلى بطلانها ، وإما لسليقة عرجاء ، وما إلى ذلك مما يصد عن رؤية الحق .

---

(١) كتاب القوانين : ج ٢ س ١٦٠ و ١٦٤ طبعة عبد الرحيم سنة ١٣١٩ هـ .

وهذا ينظر إلى حاله : فإن جحد ونفى النبوة عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقول قاطع فهو مؤاخذ ومستحق للعقاب ، لأن من خفي عليه وجه الحق لا يجوز له أن يجزم ويقطع بنفيه إطلاقاً ، فقد يكون الحق موجودا ، ومنع من الوصول إلى معرفته مانع ، وهذا هو الغالب ، فإن الأشياء الكونية موجودة فى ذاتها ، ومع ذلك لا نعلم منها إلا قليلا ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الأنبياء والمصلحين ، وأى إنسان يحيط بكل شيء علما ؟ .

وقد عبر أهل المنطق والفلسفة عن ذلك بعبارات شتى . منها : عدم العلم لا يدل على العدم . عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود . كلٌّ من الجزم بالإثبات والنفى يحتاج إلى دليل ، وقد رأينا الكثير من العلماء الأكفاء ينسجمون مع هذه الحقيقة ، فيتهمون آراءهم ، ويتحفظون فى أقوالهم ، ولا يتخذون من أنفسهم مقياساً للصواب ، ولا يقولون : هذا الرأى مقدس لا ريب فيه ، وما عداه ليس بشيء ، بل ينظرون إلى كل الآراء على أنها عرضة للتساؤل ، ولا شيء أدل على نقص العالم من غروره بنفسه ، وتزكيته لعلمه ، وازدرائه لرأى الغير وعقيدته .

وعلى هذا ، فإن مجرد عدم اقتناع زيد من الناس بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يسوغ له نفى النبوة عن النبى الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بقول قاطع ، وإن فعل فهو مسئول ، بخاصة بعد أن رأى العديد من الغرباء الأكفاء الذين لم يتأثروا بالوراثة والبيئة ، رآهم يؤمنون بمحمد ورسالته لا لشيء إلا احتراماً للحق ، واعترافاً بالواقع[1] .

هذا إذا جحد ، أما إذا نظر إلى الدليل ولم يقتنع ، ولكنه لم يجحد ، بل وقف موقف المحايد من نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لم يثبت ، ولم ينف ، وفى

(١) منهم : « ليوبولاد » النمساوى الذى أسمى نفسه : محمد أسد ، وألف كتاب : الإسلام على مفترق الطرق ، ومنهم « فاغليرى » الإيطالية صاحبة كتاب : دفاع عن الإسلام ، وغيرهما كثير لم تحضرنى أسماؤهم . وسمعت أن أحد الإيرانيين وضع كتاباً خاصاً فى أسماء من أسلم من الغربيين ، وأنهم جمع غفير .

الوقت نفسه نوى مخلصا أن يؤمن بالحق متى ظهر له ، تماماً كالفقيه العادل ، يفتى بالشيء على نية العدول عنه متى استبان له الخطأ ، أما هذا فهو غير مسئول ، لأن من أخطأ فى اجتهاده من غير تقصير فلا يؤاخذ على خطأه بحكم العقل والنقل أيضاً ، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : لو أن الناس إذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا . وفى رواية ثانية : إنما يكفر إذا جحد . وقال الشيخ الأنصارى فى كتابه المعروف بالرسائل ، فصل الظن فى الأصول : « لقد دلت الأخبار المستفيضة على ثبوت الواسطة بين الكفر والإيمان » أى أن الجاحد كافر ، والمعتقد مؤمن ، والشاك لا كافر ولا مؤمن .

ومن الأحاديث التى يمكن الاستدلال بها على عدم مؤاخذة المجتهد غير المقصر إذا أخطأ فيما يعود إلى العقيدة من هذه الأحاديث : الحديث المشهور عند السنة والشيعة : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » .

وإذا قال قائل : أن هذا الحديث خاص بخطأ المجتهد فى الأحكام الفرعية ، لا فى المسائل العقائدية ، كما ادعى جماعة من العلماء .

قلنا فى جوابه وجوابهم : إن المبرر لعدم مؤاخذة المجتهد فى الأحكام هو احتراسه وعدم تقصيره فى البحث ، وهذا المبرر موجود بالذات فى المسائل العقائدية . هذا ، إلى أن جميع الفقهاء اتفقوا - ومنهم الذين خصوا هذا الحديث بالمجتهد فى الفروع - اتفقوا كلمة واحدة على أن القاصر الذى يعجز عن إدراك الحقيقة الحقة معذور ، ونحن لا نرى أى فرق بينه وبين المجتهد الذى عجز بعد أن استنفد الجهد ، لأن كلا منهما عاجز عن معرفة ما لم يصل إليه ؟

وإلى العدد القادم إن شاء الله تعالى .

معالم التقريب

للعلامة الكبير الأستاذ محمد عبد الله محمد المحامى

— ٧ —

لا يكتفى التقريب بترديد شعار الوحدة بين المسلمين - تاركا هذه الأمنية العزيزة - على إجمالها وبعدها ، بل يسعى جهده فى إبراز التفاصيل والمعالم التى تجسمها وتزيد الناس لها فهماً وتجعلها رجاء حياً قريباً بإذن الله - يلزم كل مسلم أن يكتتب فى تحقيقه وإنجاحه على قدر وسعه ، وفى مقدمة هذا المسعى ، لفت نظر المسلمين إلى أن الإسلام ككل - وليس كمذهب معين من المذاهب الإسلامية - يقابل ويواجه مبادىء كلية قوية التأثير والانتشار لا يستطيع أن يدير لها ظهره ويضيع لو أعطاها نفسه . ومعرفة مواضع هذه المقابلة والمواجهة الخطرة الخطيرة بالنسبة لكل المسلمين - أساسية للتقريب بالذات ، لأن التقريب أولا وأخيرا حركة لجذب التفات المسلمين - بما هم به مسلمون - إلى الاهتمام بالإسلام ككل والدفاع عن الإسلام ككل والاعتزاز به ككل . فمواضع هذه المقابلة والمواجهة ، من هذه الزاوية هى من معالم طريق التقريب ، وعلى هذا الفرض ، تحدثنا فى مقال سابق عن مواضع هذه المقابلة والمواجهة فيما يتعلق بنظرية الحقوق والحريات . وفى مقال آخر عن مواضع هذه المقابلة والمواجهة فيما يتعلق بالمال ، وفى مقال بعد هذا عن مواضعها فيما يتعلق بالعلم والتعلم ، وفى هذا المقال نتحدث عن مواضع هذه المقابلة والمواجهة فيما يتعلق بفكرة المساواة ونظريتها ، فنقول والله تعالى وحده أعلم :

أن اختلاف البشر فى المواهب والاستعدادات والقدرات مشهود وهائل ، وهو يزداد كلما اختلفت الظروف وتكاثر الناس وامتد الزمن ، ويتولد عنه فى الغالب ويختلط به ، إلا ما شاء الله عز وجل بلطفه ، ميل للاستعلاء ، وشعور

بالتفوق والرغبة فى الاعلان عنه ، يرى فيه بعض أصحاب علم النفس دافعاً من الدوافع الغريزية يسوق الذات إلى اكتشاف وإثبات تميزها على غيرها ، وتوكيد هذا التميز فى محيطها .

وينتج عن هذا الاختلاف بما يصاحبه - من استعلاء ورغبة فى التميز حتما قلة تسمى نفسها الخاصة أو الصفوة أو القادة أو العقلاء أو الناضجين ، وكثرة كاثرة تُسمى من باب الاستعلاء - بالعوام أو الدهماء أو الحشوية أو الجهلاء أو البسطاء أو المحدودين أو الضعفاء أو غير الناضجين ، وتطبيق هذا الانقسام أو التقسيم يداخله الكثير من الغرور والوهم والادعاء والتواطؤ من جانب ، والخوف والتخاذل وعدم الالتفات وقبول الضغط والتسليم من جانب آخر . ولا يخفى أن كثيرين ممن يعتبرون أنفسهم من الخاصة أو الصفوة ليس بينهم وبين من يسمونهم بالعوام فروق حقيقية ترجع إلى المواهب والاستعدادات والقدرات .

ونحن فى استعلائنا ذاك المدخول المشكوك فى سنده ، ننتظر من تلك الكثرة الآدمية أن تنقاد وتذعن أو أن تستهوى وتغوى ، لأننا نفترض أنها على الجملة بليدة الفكر لا ترضى إلا بالأحلام والأوهام ولا تكاد تترك أباطيلها ، بل تنميها وتتوارثها .

كذلك لا تنقطع شكوانا من أن الكتل أو العوام تشكل فى تاريخنا قشرة سميكة تشبه قشرة الأرض ، تتحطم وتتناثر عليها وتتلوث وتتشوه وتتسرب فى جلامدها ومناقعها وأوحالها ورمالها كل المذاهب والمبادىء والقوانين والأنظمة والأفكار العالية ، وكل ما أنتجته أو تنتجه العقول أو النفوس الفذة عما هو جميل أو سديد ، وأن فى هذه القشرة السميكة تكمن وتعيش عوامل التحلل والفناء تنتهز فرصتها لتهيج وتستشرى وتدمر كل تقدم فكرى أو روحى .

فى ظل ذلك الاستعلاء وحين نزعم أننا الصفوة العاقلة الناضجة القادرة وحدها على معاناة المجهود العقلى اللازم للتقدم الفكرى والترقى الروحى نتصور أننا مسئولون عن تصحيح عمل الخالق جل وعلا ، فى خلق هذه الكثرة الغبية المعوقة

السخيفة ، وأن ذلك يعطينا حقاً شرعياً فى أن نتسنم ظهرها الهائل الخامل ، نحفر فيه الحفر ، ونصنع منه الأكوام والحيطان والجسور والحصون والسجون ، يدفن فيها بعضنا بعضا أو يسجنه فى صراعنا الذى لا يهدأ ، على السلطة والكبر والفَلَجَ والعلو الكاذب فى الأرض .

على أن أحداً لا يمكن أن يمارى فى أن وجود الضعفاء وكثرتهم شىء أساسى وراء كل مشكلة من مشاكل الإنسانية الفكرية والروحية ، وكل مشاكل الإنسانية هى أولا مشاكل فكرية وروحية ، حتى المشكلات المالية أو الاقتصادية أو العمرانية والتخطيطية ، كما لا ينازع أحد فى أن كل مشاكل النوع الإنسانى ما كانت لتوجد بصورها الحادة التى نراها عليها الآن ، لولا وجود الضعفاء وإنهم أغلبية أهل الأرض ، وأن كل خط من خطوط أى مبدأ أو أى تنظيم بشرى يحيد حتما وينحرف عن مساره الأول فى عقول أصحابه إذا دخل مناطق الكتل ، على نحو يشبه انكسار شعاع الضوء إذا دخل الشعاع وسطا آخر .

ذلك أن تصدى العقل البشرى للمشكلات الإنسانية ومحاولة تصورها واستنباط حلول لها كان وما زال يتم فى وسط مستعلٍ هو وسط القادة والحكام والمشرعين والمفكرين والفلاسفة والعلماء ، ومهما يلاحظ هؤلاء من ظروف وأحوال كتلة الناس وأغلبيتهم ، فإنهم يلاحظون ذلك من بُعد ، من مسافة زمانية أو مكانية تطول أو تقصر ، ولا يمكن أن يتخلص عملهم فى تنظيم شئون العامة ومواجهة مشكلاتهم ، من مميزات وأذواق الخاصة فى التفكير والتعبير ، ومن تغليب ما تراه الخاصة حسناً ، ومحاولة استدامة ما يستحق فى نظرها البقاء والدوام ، ولذلك لا يسير أى خط من خطوط أى مبدأ أو قاعدة أو تنظيم تضعه عقول الصفوة ، على استقامته الأولى عندها إذا دخل فى محيط الكتل ، بل تتجاذبه القوى الداخلية العاملة فى هذا المحيط وهى قوى هائلة لا يحيط بعلمها إلا الله عز وجل ، ولذلك أيضاً لا تتفاضل المبادىء والتنظيمات البشرية الأصل إلا فى مدى نجاحها مؤقتا فى اجتذاب واستهواء الكتل زمناً ما ، ثم تتعرض كلها للالتواء والإجداب والانتكاس

يكشف إجدابها والتواؤها دائماً ، عن وجود أفراد قليلين متميزين مهمين يركبون أكتاف كثيرين غير مهمين ، بالاستناد إلى نظام لم يعد ينتظم شيئاً ، وإلى مبدأ لم يعد يصدقه أحد ، لا يرى الناس فيها إلا ما يحمله من استعلاء مقيت يسمم النفوس ويطرد منها الإخلاص والثقة والوفاء والقدرة على التساند والمشاركة .

وفي قلب قضية الاستعلاء هذه تقع مشكلة احتياج المجتمعات البشرية إلى العظمة والأبهة في سياستها وضبطها ، لأننا حين نقول إن اصطناع العظمة والأبهة ضرورة لا غنى عنها لحكم الناس ، نقول أن إشاعة الخوف والخنوع فيهم وتشجيع الملق والصغار بينهم وإنشاء الوهم والخداع في أفكارهم ، ضرورة لا غنى عنها لحكمهم كذلك . ونقول في نفس الوقت إن الناس لا يمكن أن تنقطع حاجتهم - إلى أقلية تحيط نفسها بالهيبة والرهبة والكبرياء والعزة ، ويحلو منها ولها التعالي بالنفس والتيه والعناد والغضب والبطش ، لأن ذلك كله شيء لا تفارقه العظمة والأبهة وتوابعها ونواتجها .

لا يخفى أن في اصطناع العظمة والأبهة تسليطاً للأشياء المادية على عقول الناس ونفوسهم ، وهذا لا يحدث إلا في جماعة ما زالت تعتقد وتصدق أن الأشياء أغلى وأعز وأكثر قيمة وأهمية من الناس . إن العظمة والأبهة في الدرجة الأولى ، إطار يحيط به إنسان نفسه ، إطار من الأشياء المادية ، ومن الأوضاع والأتباع ، يبرز قوة الملك أو الرئاسة أو المكانة لحواس الناس الذين يصدم حواسهم ويروعها المظهر والسمت وأمارات القوة والسطوة ، من كثرة الأعوان وضخامة المكان وفخامة المعمار ، ومن البذخ في الرياش والموكب والحاشية وأسلوب الحياة واستعمال الألقاب والرئاسات والمراتب والمراسم والأوضاع المعقدة وأنواع الطقوس واللياقات والآداب . مثل هذا الإطار يشعر الخلق بهيبة صاحبه وتفوقه ، لأنه يحيطه بجو قاهر ، يعطل أو يحجب المشابهة والمماثلة الطبيعية بينه وبين بقية خلق الله تعالى ، فلا يعود قادراً بعد أن ألف العيش في هذا الإطار ، على أن يرى نفسه واحداً من العباد الكثيرين الذين لا حصر لهم يجرى عليه من سنن الله عز وجل

ما يجرى عليهم ولا يعودون ، هم على كثرتهم قادرين على أن يروا أنفسهم مثله يجرى عليهم ما يجرى عليه ، هو يكبر باستمرار ويتضخم فى عين نفسه وعيونهم ، وهم يضمرون ويصغرون فى عين أنفسهم وعينه ، يغذى ذلك ويستديمه الاعتياد من جانبه على التعزز والتميز والاستلقاء ، ومن جانبهم الاعتياد على التسليم والانحناء والترضى والتدليل ، هو - أى المتعاظم - فى إطار العظمة ذاك لايحتاج لا إلى جهد ولا إلى قدرات لاستصحاب الحال فى التمتع بالملك أو الرياسة أو السلطة أو بالمكانة الممتازة ، لأن الناس حين يحكمون بالعظمة والأبهة لا يبحثون عن حقائق الأمور ، بل يقنعون بمظاهرها وظواهرها وصورها وأشكالها ، والعظمة والأبهة تغطيان أغلب العيوب والنقائص ، وينشأ بفضلهما وفى إطارهما مع طول الاعتياد ومرور الزمان أوضاع ونظام وتاريخ ومجد تعتز به نفوس الكثرة ، وتتجمع حوله عواطفهم ، وتتعلق به وتتشبث رغم افتضاح العيب أو النقص فى هذا أو ذاك من المتعالين المستظلين بظله .

يخاطب إطار العظمة أولا غريزتى الطمع والخوف ، ويتعامل ابتداء وانتهاء مع النوازع الأنانية ، فهو حبالة عظيمة وحيلة هائلة لاقتناص النفوس ، التى يغريها ويجتذبها ما تتيحه العظمة لصاحبها من الاستمتاع بالتميز والجاه والسلطة ونواتجها المادية والاستزادة منها واستدامتها أحياناً كثيرة فى نسله وأهله . ومن هنا كان تهافت الناس وكلبهم على طلب السلطة والمناصب والألقاب واقتتالهم عليها ، واستحلالهم كل حرام فى سبيلها ، وقطعهم أرحامهم من أجلها ، ونسيانهم الله عز وجل فى اشتغالهم بها . ومن هنا أيضاً كان هذا الجو من التصنع والتظاهر وتبادل الخداع والانخداع الذى يخيم دائماً على مجتمع المدينة ، وأحياناً على مجتمع القرية فى كل حضارة قديمة أو حديثة ، ويختلف شدة وكثافة باختلاف الناس والظروف ، ويخنق أحياناً كثيرة أرواح العباد وعقولهم هم وما معهم من الحضارة .

ومعلوم أن إطار العظمة يفرض بسرعة لغته ومصطلحاته وأذواقه وأفضلياته على محيط السيد المتعاظم ، ملكا كان أو وزيراً أو رئيساً ، فيتخصص هذا المحيط

مع مرور الوقت ، لإرضاء السيد وإقامة مجده والمحافظة على مجده ، ويصبح هذا المحيط مبنياً على هذه القاعدة يطرد الصادقين الحريصين على احترام الصدق ، ليتخذ باستمرار طابع الحاشية الشخصية المجرَّبة الولاء ، المقصورة على المحبين المقربين ، ويعيش هؤلاء فى عالم صناعى يدور حول شخص السيد ، ويلف بلا انقطاع خيوطه حول السيد الذى يطويه هذا العالم المبنى على الوهم والاصطناع ، فيفقد الحكمة والاتزان ، ويقع تبعاً لذلك الظلم وتبدد الأموال وتمتهن الكفايات ويثاب العابث ويسلط العاجز التافه على رقاب الجادين القادرين ، وتفقد أغلى الأشياء وأعزها على الإنسان السوى احترامها وحرمتها .

والقرآن المجيد يرفض كل صور الاستعلاء فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، كما يرفض الاستعلاء فى علاقة الحاكمين بالمحكومين ، ويرفض أن تكون السلطة فرصة وسبباً للعلو على الخلق ، ويرفض أن يحكم الناس بعضهم بعضا ، أو يقود بعضهم بعضا من إطار العظمة والأبهة ، ويرفض أن يتسلق المسلمون إلى أقدارهم على هذا الإطار وحوله . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » ، « أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » ، « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض » ، « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق » . ذلك أن كتاب الله يبدأ وينتهى من « لا إله إلا الله » فإذا وجد هذا الولاء لله تعالى فى قلب المسلم السوى ابتعد عن إطار العظمة والأبهة وتحاماه حاكما كان أو محكوماً وعافت نفسه وكرهت أوهام هذا الإطار وتهاويله وكبرياءه وغروره ، إذ ليس ينتفع من ذلك الباطل بشىء من يرى الله حقيقة حاضرة قاهرة فوق عباده . أما من لا يشعر بحضوره تعالى فهو فى حال من الغفلة يستطيع معها أن يستكبر ويتعاظم ، أو يستكبر غيره ويتعاظمه ويؤلهه « إنهم إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون » . وقد أوصانا الهادى صلوات الله وسلامه عليه ألا نعلو على الله فى بلاده وعباده ، كما أوصانا أن نحثوا التراب فى وجوه المداحين ، علماً بأن المداحين هم سماسرة ومروجو العظمة الباطلة وأعوان الظلمة والطغاة وبناة الأصنام والأوثان البشرية ، فى بلاد الله وبين عباده .

ولا يقر القرآن المجيد والسنة المطهرة من صور الحكم إلا الصورة التي تلغي كل المسافات وأنواع البعد والغربة والانفصال بين الناس وبين حكامهم إلا الصورة التي يتعرى فيها الحكام من كل أغطية الأبهة وستائر العظمة والاستعلاء ، حتى لا تحجب بشريتهم وعبوديتهم لله عز وجل ، ولا تخدع الناس في حقيقتهم ، إلا الصورة التي يتجرد فيها الحكم من كل الامتيازات المادية ، وكل ما يجعله غاية المطمع وقبلة للمغنم والتملك ، ومن كل الامتيازات الاجتماعية التي يصير معها الحكم عزاً للولد والأهل والعشيرة يرفعهم على الناس في الحال والمآل . وهذه الصورة توجد حتما إذا تم الولاء لله تعالى ، وإذا حفظ الناس الله تعالى .

نقول أن هذا التمييز من جانب الإسلام - في عنفوانه - بين صور الحكم على أساس الاستغناء عن إطار الأبهة والعظمة وتهاويلها وستائرها ، أو الاحتياج إلى ذلك الإطار ، هو تمييز صحيح عميق بالغ العمق يحس عمقه وصحته أبناء هذا العصر الذين لا يرون في حياتهم شيئاً حقيقياً تسكن إليه النفس وتطمئن ، إن نظم الحكم في زماننا - رغم اختلافها في الأسماء والأوضاع والأغراض في البلاد المختلفة - لا تفارق إطلاقا إطار الأبهة والعظمة وتهاويلها وستائرها كلها يعيش داخل هذا الإطار ، على درجات تتفاوت بتفاوت الظروف والحاجات في كل بلد ، كلها يشترك في إيجاد غربة وانفصال حاد بين الحكام والمحكومين ، لا يخفف من حدته الصيغ اللفظية عن سيادة الشعب تقال في الدساتير والقوانين وكلام الساسة ، وكلها يشترك في تصوير الحاكم على أنه ليس إنساناً عادياً ، بل شيء هائل القوة لا يرد ولا يصد يعيش في نوع من اللا اسمية والغموض ويعمل كنظام لا يعرف أحد على التحقيق كيف ولا من أين تأتي القرارات التي تصدر عنه وتنسب إليه ، وكلها يشترك في جعل حياة الناس غير إنسانية تتحكم فيها كائنات افتراضية اعتبارية لها طابع مسرحي تتعامل على أساس أن الناس مجردات ووحدات وأعداد وموضوعات ومشروعات وتخطيطات وتقديرات في سياق عام أو تاريخ عام لا يبالي بما يحدث لهذا الإنسان أو ذاك على التحديد ، وكلها يشترك في اختلاف القواعد والمبادىء

التى تحكم سلوك وتصرفات الحكام بما هم حكام عن القواعد والمبادىء التى تحكم سلوك المحكومين، وفى إخضاع الأخلاق لما يسمونه باعتبارات السياسة أو السياسة العليا.

لقد استبعد الإسلام فى عنفوان العقيدة ، إطار العظمة استبعاداً كلياً فى حكم المسلمين ، فلم يتصور النبي عليه الصلاة والسلام ولا المسلمون على عهده ، كما لم يتصور الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم ، ولا من كان فى عهدهم من الصحابة والمسلمين بالمدينة ومكة أن يكون للنبي أو للخليفة قصر يحكم منه الناس ولا حاشية تحف به ولا حرس يقفون بين يديه ومن حوله ، ولا ثياب غالية يرفل فيها ، ولا طعام ذو ألوان تزدان به الموائد وتستبق إليه الأيدى ، كما لم يتصوروا أن عليهم حين يلقونه أن يتخضعوا أو ينكسروا وينحنوا أو أن يطروا ويتملقوا ، ولم يدر فى خلد أحد منهم أن يلقب النبي أو أحداً من الخلفاء الأربعة بألقاب العظمة أو الجلالة أو الفخامة أو السيادة ، لم يتصوروا ذلك ، لأن صغيرهم وكبيرهم كان يعلم أن بين حكومة الإسلام وبين المُلك بعد المشرقين ، وأن الذى يميز حكومة الإسلام وجماعة المسلمين ، هو ذاك الاستغناء التام عن الاستعلاء وعن إطار العظمة والأبهة ، ومع ذلك لم يكن سلطان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا سلطان الخلفاء الأربعة من بعده - على المسلمين - قليلا ولا ضيقا ، وحسبنا أن نذكر أنه كان يتناول أمور الدين والدنيا معا ، وأن نعلم أن معظم الفتوح قد تم فى ذلك الزمن وأن الخلفاء الأربعة أداروا حروباً هائلة ، كما أداروا امبراطورية واسعة.

جرد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، والخلفاء الأربعة رضى الله عنهم حكم الناس تجريداً تاما عن فكرة الملكية ، ومن كل أثر من آثار فكرة الملكية ، كما جردوه من فكرة الانتفاع ، وكل أثر من آثار فكرة الانتفاع ، فلم يكونوا فى تصور رعاياهم من المسلمين - قط مالكين للسلطة أو لبيت مال المسلمين ولا أصحاب حق فى الانتفاع بالسلطة أو بمال المسلمين ، ولم يفكر أحد فى أن يغصب منهم هذا النوع الفريد من الحكم الذى لا يستحق الغصب ، والذى لم يسبق للعالم به عهد ، ولا فى مزاحمتهم عليه ، وإذ هو فى يدهم مسئولية ومشقة فقط بلا عوض

ولا مقابل ، بل كان طمع الطامعين فى إزاحتهم أن يُحوّل الحكم والسلطة إلى عهدهما قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أى إلى ملك يستأثر به ويستدام ويخاف عندئذ عليه الغصب والوثوب ، ودولة تحتاج لاصطناع الموالين والبطش بالمعادين والطامعين ، وهنا يجب أن نتذكر أن فكرة الملكية لم تفارق نظم الحكم فى أوربا إلا بعد الثورة الفرنسية ، ولا تزال آثار وبقايا من هذه الفكرة باقية فى حقوق وامتيازات الملوك فى نظم توارث العرش فى البلاد الأوربية التى تحتفظ بالنظام الملكى ، كذلك يجب أن لا ننسى أن طابع الملك والملكية فى الحكم - لا يمكن أن يزيله تغير العبارات والصيغ والاصطلاحات والشعارات ، ولا أن الحكم يجرى اختياره فى عصرنا بالانتخاب لمدة معينة ما دام أن ذلك يلازمه الحرص والعمل على استدامة السلطة واحتكارها والاحتفاظ بمزاياها المادية والمعنوية فى فئة معينة من النا س يجمعها الولاء الواعى لأغراضها ومصالحها ومثلها المشتركة .

وإذ كان ذاك النوع الفريد من الحكم ، مسئولية ومشقة بلا عوض ولا مقابل اللهم إلا الكفاف من الرزق ، لم يشتغل الحاكم بالمحافظة على سلطانه على المسلمين ، ولم يضيع فى ذلك وقتاً أو جهداً أو مالا أو يسفك فى سبيله دماً ، لأن عقد البيعة قد جعل ذلك أمانة فى عنق المحكومين أنفسهم ، ولم يفكر مسلم فى تلك الفترة المجيدة فى إمكان الخروج عن بيعته ، كذا لم يفكر الحاكم فى هذه الفترة ، فى أن يعيش فوق القانون العام الذى كان يحكمه ويحكم سائر المسلمين - على سواء - وهو القرآن المجيد ؟

رأى فى الدعوة الإسلامية من منظور جديد

بقلم فضيلة الأستاذ عبد الرحمن محمد النجار
مدير المركز الإسلامى بدار السلام

١ ــ الدعوة جزء من الإسلام :

الإسلام دين دعوة ، عن طريق الحوار وإعمال العقل والفكر المستنير « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » ، والقرآن الكريم يثنى على الدعاة الذين يرشدون الجماهير إلى الطريق الصحيح إلى الله ، وإلى الخير والعدل والسلام . قال تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا » إن هؤلاء الدعاة لا بد من أن يطبقوا دعوتهم على أنفسهم أولا حتى يكونوا مثلا رائدا ، يحتذى بهم ، ويقتدى بهداهم ، ولهذا قالت الآية المذكورة « وعمل صالحاً » ولا بد كذلك من أن يعلن الداعى منهجه بوضوح « وقال إننى من المسلمين » .

وحدد الإسلام أسلوب الدعوة إليه ، فهو يرفض بشدة الأخذ بأسلوب القهر والإلزام ، لأن ذلك يناقض طبيعة الإنسان ، من أنه صاحب عقل وإرادة يختار بهما ما يشاء عن طريق الاقتناع . فيقول القرآن الكريم : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

٢ ــ أبعاد الدعوة الإسلامية :

وما دام أن الإسلام هو دين عام خالد ، دين الانسانية كلها من غير تفرقة بين لون ولون أو جنس وجنس ، فيجب أن تتسع آفاق الدعوة إليه لتصل إلى عقل كل إنسان . وهو بعد ذلك صاحب المشيئة والاختيار فى قبول ما يراه مناسبا لعقله أو رفضه ، فإذا ما قصر المسلمون فى إبلاغ الدعوة للناس جميعا كانوا آثمين . والقرآن الكريم يبين وظيفة رسول الله وهو الداعى الأول للإسلام بهذا الشمول فيقول : « وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » .

٣ ــ واقع الأمة العربية :

الأمة العربية فيها دعاتها ، وتزخر بأساليب الدعوة المختلفة لها ، والمسلمون

فيها يعرفون دينهم وأهدافه على تفاوت فى هذه المعرفة من فرد إلى فرد ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، لكن هناك أعما شتى فى مختلف جهات الأرض ، فيها إما مسلمون بالوراثة ، ولا يعرفون بعد ذلك شيئا عن الإسلام ومبادئه وأهدافه ، ويتمنون من قلوبهم أن يعرفوا من أهدافه الكثير ، وإذا رأيتهم وهم يسمعون ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ، وقلوبهم تكاد تنخلع من روعة ما تسمع ، وإن كانت لا تفهم ما تسمعه . وإما أناس لم تصل إليهم دعوة الدين ، وهؤلاء فى أشد الحاجة إلى من يبصرهم بسماحة الإسلام ، وبسيرة رسول الله ، وبأنه خاتم النبيين والمرسلين الذى جاء بشريعة توائم الفطرة الإنسانية المستقيمة .

٤ — واجب الأمة الإسلامية :

من هذا وجب وجوباً عينياً التعاون بين المسلمين من أجل إبلاغ الدعوة إلى هذين الفريقين من الناس ، بحيث يقدم من لديه الخبرة الفنية صفوة رجاله وخلاصة خبراته ، ويقدم من لديه الاقتدار المادى جزءاً من ثروته ليتيسر على الدعاة نشر دعوتهم ، ويسير هذا وفق تخطيط منظم مدروس وتتحمل كل دولة مسئوليتها فى ذلك.

٥ — واقع أعيشه :

وإننى إذ أكتب هذا أكتبه من أرض واقع أعيشه ، فى بقعة من أفريقيا ، عزيزة علينا ، حبيبة إلى قلوبنا ، وهى بقعة تقرر حرية الأديان . لكن دعوة الإسلام فيها لا تجد التخطيط المدروس المنظم ، ولا تجد الإمكانيات البشرية والمادية التى تظهر أصالته وتؤكد أنه حقيقة دين الحياة .

٦ — مسئولية دول الاتحاد فى الأساس :

وإذا كنت أحمل المسلمين جميعاً مسئولية إبلاغ الدعوة لهذه البقاع ، فإننى أبدأ بدول الاتحاد الثلاثى ، وقد حملت مسئولية قيام دولة العلم والإيمان ، ونشر مبادىء هذا الدين الحنيف الذى يؤكد للإنسان حقه فى الحرية والعزة والكرامة ، فى مجتمع مرفوض فيه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، إننى أهيب بها لتقوم بواجبها نحو دينها ونحو إخوتهم فى الإنسانية ليقيموا الأمة الخيرة التى تشير إليها الآية الكريمة من كتاب ربنا تبارك وتعالى فى قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ؟

البلاغة عند الجاحظ

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العمارى
المدرس بجامعة الأزهر

أرجح أن الجاحظ أول من قضى قضاء واضحاً ، لا لبس فيه ولا غموض ، بين اللفظ والمعنى ، ففضل أحدهما على الآخر .

وقد كانت كل كلمة سبقت تتصل باللفظ والمعنى تمهيداً لهذا الحكم ، سواء فى مجال النقد الأدبى ، أم فى مجال الجدل الكلامى حول إعجاز القرآن .

ولم يفصح أحد من القائلين - قبل الجاحظ - فيما وصلت إليه ، بتفضيل أحد الركنين على الآخر ، وما نسب إلى واحد منهم - فى ذلك - إنما هو مجرد استنباط من كلامه .

عاش الجاحظ فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، والنصف الأول من القرن الثالث . كانت ولادته فى سنة (١٥٩ هـ) ووفاته فى سنة (٢٥٥ هـ) ، وكانت حياته بمدينة « البصرة » وهى - حينذاك - تموج بألوان كثيرة ومختلفة من الدراسات الأدبية والعلمية والفلسفية ، وكان الرجل نادرة فى الشغف بالعلم والدرس والتأليف ، وقد هضم ثقافات عصره ، وألف فى أكثر فروعها ، وكان كثير من مؤلفاته صدى لما تحفل به بيئته العلمية والأدبية .

وكان تلميذاً للمتكلم الكبير « إبراهيم بن سيار النظام » شديد الإعجاب به ، كثير الثناء عليه ، وكان النظام قوى الحجة ، ساطع البرهان ، خبيراً بمسالك الجدل ، فكثر أتباعه ، بل كان الناس يتحولون من حلقات العلماء إلى حلقته ، ويعتنقون مذهبه .

ومن المشهور أن النظام اعتقد رأياً خاصا فى سر إعجاز القرآن ، وعرف هذا الرأى به ، لمبالغته فى الدفاع عنه ، وبذلك وقعت الشبهة فى نفوس كثيرين من طلاب المعرفة [1] .

---

(١) لى رأى خاص فى فهم مذهب (الصرفة) دونته فى كتابى (حول إعجاز القرآن) .

وقد وجد هذا المذهب له أنصاراً من الشعوبية ، والزنادقة أعداء الإسلام ، بل وقع من نفوسهم موقع الماء من ذى الغلة الصادى . فاتخذوه - وغيره - وسائل للطعن على الإسلام وكتابه .

والشعوبيون - فى ذلك العصر - عرفوا بعداوتهم للإسلام ، وللعرب ولغتهم وسلطانهم . أما الزنادقة ، وزنادقة الكتاب - بخاصة - فكانوا ما يكاد أحدهم يحفظ شيئاً من الكلام ، ويشدو يسيراً من العلم ، ويروى قليلا من الأدب ، حتى يظن نفسه صاحب علم ورأى : « فيكون أول بدوه الطعن على القرآن فى تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل الآثار »[1] .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الجاحظ - أيضاً - عند احتجاجه للتشبيه فى قوله تعالى عن شجرة الزقوم : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » فقد قال : « فقال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشىء لم نره فنتوهمه ، ولا وصفت لنا صورته فى كتاب ناطق ، أو خبر صادق » . . . .

. . . وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التى لم تعايش أهل الكتابين ، وحملة القرآن من المسلمين ، ولم تسمع الاختلاف ، لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ، ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيداً عاما[2] .

وكان من هؤلاء من لا يتورع عن الاستخفاف بالقرآن ، والتهوين من شأنه . روى بشار بن برد قال : بلغنى أن رجلا كان يقرأ القرآن ، وحماد « يريد حماد عجرد » ينشد الشعر ، فاجتمع النـاس على القارىء ، فقال حماد : علام تجتمعون ؟ فوالله لمـا أقول أحسن ممـا يقول[3] .

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤٢ ، وضحى الإسلام : ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) كتاب الحيوان : ج ٦ ص ١١٢ .

(٣) أمالى المرتضى : ج ١ ص ٩٣ . ط . أولى .

وروى أن عبد الكريم بن أبي العوجاء - وزندقته أشهر من أن توصف - رأى يمولا عليه آية الكرسى ، فقال لصاحبه : لم كتبت هذا عليه ؟ فقال : لئلا يسرق ، فقال : قد رأينا مصحفاً سرق [1] .

هذه واحدة .

أما الثانية : فقد كانت البصرة ، والحواضر الإسلامية - بعامة - تموج بعلماء أعلام ، قد انحرفت أذواقهم الأدبية ، فى رأى الجاحظ .

فمنهم من كان يعنى بالغريب ، ويتبجح بروايته ، وربما استعمله فى كلامه ، فعيسى بن عمر المتوفى سنة (١٤٩ هـ) كان صاحب تقعير فى كلامه ، واستعمال للغريب فيه ، وفى قراءته ، والنضر بن شميل كان صاحب غريب ، وكذلك كان ابن كنانة الكوفى المتوفى سنة (٢٠٧ هـ) . أما أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة (٢١١ هـ) فكان الغريب أغلب عليه ، وكان يبغض العرب ، وقد ألف كتاباً فى مثالبها .

وخلف الأحمر (١٢٣ — ٢١٣ هـ) كان راوية ، وعالماً بالغريب ، وأبو زيد الأنصارى ، كانت اللغات والنوادر فى الغريب أغلب عليه ، وأبو مهدية كان أعرابيا صاحب غريب [2] .

وكان هؤلاء وغيرهم من أمثالهم يديرون فى كتبهم ألفاظا من الغريب ، يقول الجاحظ عنها : أن الأصمعى لو خوطب بمثل هذا لظننت أنه سيجهل بعض ذلك .

ومنهم من كان يستحسن الشعر الردىء ، ويدخله فى بعض ما يختار ، يقول الجاحظ : « ولقد رأيت أبا عمرو الشيبانى يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ، ليدخلها فى باب التحفظ والتذكر ، وربما خيل إلىّ أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن يقولوا شعراً جيداً لمكان أعراقهم من أولئك الآباء . . . ولولا أن أكون

---

(١) المصدر السابق : ج ١ ص ٩٥ .

(٢) المعارف لابن قتيبة : ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

عيابا ، ثم للعلماء خاصة ، لصورت لك بعض ما سمعت من أبي عبيدة ، ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة »[١] .

ومنهم - بل أكثرهم - من كانوا يتعصبون على الشعراء المحدثين ، فيهرجون أشعارهم ، ويحكمون على ألفاظهم بالسخف ، وعلى معانيهم بأنها مأخوذة من معاني السابقين ، فالمعاني المتخلفة من عندهم ، والمعاني الجيدة من السابقين أخذوها .

ثم تثور الخصومة بين الرواة والشعراء .

سئل أبو نواس عن جرير والفرزدق والأخطل ، ففضل جريرا ، فقيل له : إن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا . فقال : ليس هذا من علم أبي عبيدة ، فإنما يعرفه من دفع إلى مضايق الشعر[٢] .

وقابل الرواة العلماء تحديا بتحد مثله ، فأخذوا يتمادحون ، فأبو عبيدة يمتدح خلفا الأحمر بأنه معلم أهل البصرة ، والأخفش يقول : لم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف الأحمر والأصمعي[٣] ، وأبو زيد الأنصاري يقول : وكان يونس - يعني يونس بن حبيب النحوي - عالماً بالشعر ، نافذ البصر في تمييز جيده من رديئه ، عارفا بطبقات الشعراء ، حافظاً لأشعارهم ، يرجع إليه في ذلك كله[٤] .

ويحكي ابن سلام الجمحي أن قائلا قال لخلف الأحمر : إذا سمعت أنا بالشعر ، واستحسنته ، فما أبالي ماقلت فيه أنت وأصحابك . فقال له خلف : إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته ، فقال لك الصراف : إنه رديء ، هل ينفعك استحسانك له[٥] ؟.

فالرواة العلماء كانوا يعدون أنفسهم صيارفة الشعر ، والكتاب والشعراء كانوا يعتقدون أنهم أعرف بنقد الشعر .

(١) البيان والتبيين : ج ٤ ص ٢٤ .
(٢) العمدة : ج ٢ ص ١٠٤ .
(٣) معجم الأدباء : ج ١١ ص ٦٧ .
(٤) المصدر السابق : ج ٢٥ ص ٦٥ .
(٥) طبقات فحول الشعراء : ص ٦ .

فى هذه الأجواء التى أشرنا إليها : جو المتكلمين من النظام وأصحابه وخصومه ، وجو الطاعنين على القرآن ، وعلى العربية ، وجو العلماء الذين يستحسنون ما ليس يحسن من الشعر ، وجو هذه الخصومة بين الرواة العلماء ، وجهابذة القول من كتاب وشعراء ، وعلى ضوء المعارف الخاصة التى كانت سائدة فى عصر الجاحظ .

أقول : فى هذه الأجواء كلها كتب الجاحظ بيانه فى البيان ، وكانت القضية الأولى التى صدر عنها فى كل أقواله « قضية اللفظ والمعنى » فأرسل فيها حكما ، ورتب على الحكم نتائج ، وهذا ما نحن شارعون فى كشفه وتحقيقه بعون الله تعالى .

* * *

قال الجاحظ بعد أن اتهم من يبهرج أشعار المولدين بأنه غير بصير بجوهر ما يروى : « وأنا رأيت أبا عمرو الشيبانى ، وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ، ونحن فى المسجد ، يوم الجمعة ، أن كلف رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا ، حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا » .

ولو لا أن أدخل فى الحكم بعض الفتك [1] ، لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أبداً ، وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك على كل حال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعانى « والمعانى مطروحة فى الطريق » يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والغزوى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير [2] .

وقد أورد الجاحظ هذه الكلمة فى كتاب « الحيوان » وهو سابق على كتاب « البيان والتبيين » لأنه أشار فيه إلى كتاب الحيوان ، فكل ما كتبه فى كتاب « البيان » راجع إلى هذا الحكم ، فرأيه هذا هو الأساس لكل ما قاله بعد ذلك ، مما يتعلق باللفظ والمعنى ، وبخاصة أنا لم نجد له رأيا مخالفا .

---

(١) الفتك : المجون . (٢) الحيوان : ج ٢ ص ١٣١ — ١٣٢ .

وكذلك يتفق هذا الحكم مع رأى الجاحظ فى إعجاز القرآن ، فالمشهور عنه أنه كان يرى هـذا الإعجاز فى « نظم القرآن وتأليفه » وقد نقلت فى غير هـذا البحث ما يثبت هذا الرأى له .

ونزيد ـ هنا ـ أن من العلماء المؤلفين فى علم الكلام من أسند هذا الرأى للجاحظ قال صاحب « المواقف » فى كتاب « النبوات » وهو يتحدث عن إعجاز القرآن : وقيل كونه فى الدرجة العليا من البلاغة التى لم يعهد مثلها ، وعليه الجاحظ » .

بل إن الجاحظ كان يرى أن العرب لا يمكنهم أن يساموا النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى فصاحته ، وأن يجاروه فى بلاغته ـ فضلا عن أن يساموا القرآن ويجاروه فيهما ـ قال : « فإذا رأت مكانه ـ يريد النبي ـ الشعراء ، وفهمته الخطباء ، ومن قد تعبد للمعانى ، وتعود نظمها ، وتنضيدها ، وتأليفها ، وتنسيقها ، واستخراجها من مدافنها ، وإثارتها من أماكنها ، علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم ، مما قد استفر عنهم ، واستغرق مجهودهم ، وبكثير مما خولوه قليلا مما يكون معه على البداهة ، والفجاءة ، من غير تقدم فى طلبه ، واختلاف إلى أهله » [1] .

* * *

وقد حكى الإمام عبد القاهر رأى الجاحظ فى تفضيل اللفظ على المعنى ، وأن المعانى لا يكون بها تفاضل ، فبعد أن ذكر أن الداء الدوى هو غلط من قدم الشعر بمعناه ، وأقل الاحتفال باللفظ ، وقال إنه لا يرى متقدما فى علم البلاغة ، مبرزا فى شأنها ، إلا وهو ينكر هذا الرأى ، ولست تنظر فى كتاب صنف فى شأن البلاغة ، وكلام جاء عن القدماء ، إلا وجدته يدل على فساد هذا المذهب ، ورأيتهم يتشددون فى إنكاره ، وعيبه ، وللعيب به . ثم قال : « وإذا نظرت فى كتب الجاحظ وجدته يبلغ فى ذلك كل مبلغ ، ويتشدد غاية التشدد ، وقد انتهى فى ذلك إلى أن جعل العلم بالمعانى مشتركا ، وسوى فيه بين الخاصة والعامة » [2] .

---

(١) إعجاز القرآن « للرافعى » ص ٣٩٧ ج ١ . ثالثة .
(٢) دلائل الإعجاز : ص ١٩٧ .

ثم ذكر القصة التى عاب فيها الجاحظ أبا عمرو الشيبانى والتى أثبتناها آنفا ، وعلل تشدد العلماء فى إنكار هذا المذهب « تفضيل الشعر بمعناه ، وقلة الاحتفال باللفظ » بأن « الخطأ فيه عظيم ، وأنه يفضى بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ، ويبطل التحدى من حيث لا يشعر »(٢) .

٭ ٭ ٭

وهذا الرأى الذى ذهب إليه الجاحظ فى القرن الثالث الهجرى ، هو الذى يردده الآن كثير من الكتاب الغربيين . يقول أحد كتابهم الكبار : « لا بد أن تكون الكلمات ، وطرق ترتيبها ، وتواشجها ، هى المصدر الأكبر المباشر لكل ما تتضمنه الفنون المكتوبة ، أو المحكية من تأثير ، فالكلمات هى التى تلد المعانى »(٣).

ويقول آخر : « إن الأفكار والحوادث والمكتشفات شركة بين الناس ، ولكن الأسلوب من الرجل »(٤) .

غاية البيان :

مذهب الجاحظ فى اللفظ والمعنى - بل مذهب كل قائل فى نقد الأدب - مرتبط أوثق الارتباط بالغاية من البيان ، لأنها الهدف الذى يقصد القائل بلوغه ، والباعث الذى يحمل الشاعر والكاتب والخطيب ، على أن يحبروا القول ، ويزينوه ، وينمقوه ، ويوشوه .

وقد عقد الجاحظ فى أوائل كتابه « البيان والتبيين » بابا فى « البيان » وقال : وكان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول هذا الكتاب ، ولكنا أخرناه لبعض التدبير.

وفى هذا الباب ذكر أن المعانى مستورة خفية ، ومحجوبة مكنونة ، لا يظهرها إلا الإخبار عنها ، وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى ، ونفعه ، ثم قال : « والدلالة الظاهرة على المعنى

(١) المصدر السابق : ص ١٩٨ .

(٢) انظر كتاب : « النقد الأدبى » تأليف : ستانلى هاين ، وترجمة الدكتورين : عباس ونجم : ج ٢ ص ١٠ . (٣) دفاع عن البلاغة : ص ١٦ .

سمات اللفظ البليغ :

اللفظ المختار :

على القائل أن يختار اللفظ المناسب للسامع ، الخفيف على اللسان ، العذب فى الأسماع (وكلام النا س طبقات ، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات ، فمن الكلام : الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسمج ، والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا)[1] .

فمن أراد البلاغة فعليه أن يختار الوسط من الألفاظ (فكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميا ، وساقطاً سوقيا ، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريباً وحشيا ، وإلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس)[2].

ومن خفة اللفظ أن يتركب من حروف خفيفة متلائمة ، وقد بين الجاحظ أن من الحروف ما لا يجتمع بعضه مع بعض ، كالجيم والظاء ، والطاء والغين . ثم يقول : وهذا باب كبير ، وقد يكتفى فيه بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التى يجرى إليها .

ويكرر الجاحظ كثيراً وصف الألفاظ بما يجعلها خفيفة على الألسن ، موفية على الغاية . ينقل عنه ياقوت الحموى كلمة خلاصتها : أن اللفظ متى طابق معناه ، وأعرب عنه ، ووافق الحال ، وخرج عن التكلف والاستكراه ، ومتى كان كريماً متخيراً ، وسليما من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره[3] .

وموافقة الحال التى ذكرها الجاحظ معناها أن يستعمل اللفظ عند القوم الذين يألفونه ، ويجرى فى مخاطباتهم ، فإن لكل صنف من الناس كلمات حظيت عندهم ، فللكتاب ألفاظ ، وللشعراء ألفاظ ، ولطوائف من الناس ألفاظ هى أمس بهم ، وأقرب إليهم ، فعلى البليغ أن يتجنب الألفاظ التى لا تناسب المستمعين ، فإن كان

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٤ . (٢) الموضع السابق .
(٣) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٩٥ . وانظر « البيان » ج ٢ ص ٨ .

الخطيب متكلما تجنب ألفاظ المتكلمين ، كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين .

قال الجاحظ : (وقد تحسن ألفاظ المتكلمين فى مثل شعر أبى نواس ، وفى كل ما قالوه على وجه التظرف والتملح)[1] .

والجاحظ يزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى ، وأنه قد يحتاج إلى السخيف فى بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ ، والشريف الكريم من المعانى .

قال : ومتى سمعته ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها ، وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية ، وعليك فضل كبير ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطّغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها[2] .

ونلاحظ هنا أن الجاحظ جعل للبيان غاية أخرى وراء الإفهام ، هى الإمتاع ، فلا يظن ظان أن الجاحظ أخطأ حين قصر غاية البيان على الإفهام .

ولذلك ـ أيضاً ـ كان يستملح اللحن من الجوارى الظراف ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور ، ما لم تكن واحدة منهن صاحبة تكلف .

وقد ذكر الجاحظ ألفاظاً كانت مكروهة من طريق الرواة ، من ذلك ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا يقولن أحدكم خبثت نفسى ، ولكن ليقل تعست نفسى) كأنه كره صلى الله عليه وآله وسلم أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه .

وجاء عن عمر ومجاهد وغيرهما النهى عن قول القائل : استأثر الله بفلان ، بل يقال : مات فلان ، ويقال : استأثر الله بعلم الغيب [3] .

(١) البيان ج ١ ص ١٤١ . (٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٥ .
(٣) الحيوان ج ١ ص ٣٣٥ .

وكره مجاهد أن يقولوا : مسيجد ومصيحف ، للمسجد القليل الذرع ، والمصحف القليل الورق .

قال الجاحظ : ورب اسم إذا صغرته كان أملأ للصدر ، مثل قولك : أبي عبيد الله هو أكبر فى السماع من أبي عبد الله ، وكعب بن جعيل هو أفخم من كعب بن جعل .

وكانوا يكرهون ألا تكون الألفاظ قريبة الدلالة على معانيها . سمع عمر - رضى الله عنه - رجلا يدعو ، ويقول : اللهم اجعلنى من الأقلين . قال : ما هذا الدعاء ؟ قال : إنى سمعت الله عز وجل يقول : (وقليل من عبادى الشكور) وقال : (وما آمن معه إلا قليل) قال عمر : عليك من الدعاء بما يعرف[1] .

ثم أورد الجاحظ ألفاظاً كثيرة كرهها الصحابة ومن بعدهم ، ونقل السر فى كراهة بعضها ، ولم يقف عليه فى كراهة بعضها الآخر .

وقد أشرت فى بعض ما نقلت عن الجاحظ أنه كان يكره أن تهذب الألفاظ حتى لا يكون إلا (لب اللب) وإلى سر ذلك عنده ، وهذه حقيقة ، فالجاحظ مع عنايته باختيار اللفظ كان يكره المبالغة فى التهذيب ، ويدعو إلى الاقتصاد فى ذلك . ويكفى أن ينظر البليغ فى مواقع الألفاظ ، وأين استعملها العرب[2] ، ويذكر قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا خلابة) ويذكر كلمة لبعض الربانيين من أهل المعرفة بما يعترى الإنسان من الفتنة بحسن ما يقول . هذه الكلمة تحذر من حسن الألفاظ ، وحلاوة مخارج الكلام ، لأن الألفاظ تزين المعانى ، وتمنحها دلاً متعشقا ، فتصير فى القلب أحلى (والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوى ، ومدخل خدع الشيطان خفى)[3] .

والجاحظ يوافق هذا الربانى ، وينصح بأن يكون هذا الباب على ذكر منا دائما ، وألا نفرط ، وقد أصحبه بقصة تشير إلى بعض التدبير فى ذلك . قال إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - احتبس الأحنف بن قيس حولا كاملا - وهو

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٨ . (٢) الحيوان ج ٣ ص ٣٤٣ .
(٣) البيان ج ١ ص ٢٥٤ .

أبين العرب والعجم قاطبة - كما يقول الجاحظ - ليبالغ فى تصفح حاله ، ثم قال له بعد ذلك : (إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد كان خوفنا كل منافق عليم وقد خفت أو تكون منهم) قال الجاحظ : وما قال له ذلك إلا لما كان راعه من حسن منطقه ، ومال إليه لما رأى من رفقه ، وقلة تكلفه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن من البيان لسحرا) .

وكأن كلمات هذا الربانى ، وكلمات الجاحظ معه ، ومن قبلها كلمة رسول الله : (لا خلابة) ذهبت جميعاً إلى أن حسن البيان قد يكون وسيلة إلى الشر ، وقد يجعل الحق باطلا ، والباطل حقا ، ومما يشير إلى ذلك قول مالك بن دينار : (ما رأيت أحداً أبين من الحجاج ، إن كان ليرقى المنبر ، فيذكر إحسانه إلى أهل العراق ، وصفحه عنهم ، وإساءتهم إليه ، حتى أقول فى نفسى : إنى لأحسبه صادقا ، وإنى لأظنهم ظالمين له)[1] .

وقد يقال : إن هذه النظرة من الجاحظ نظرة دينية ، فلا ينبغى أن تصلح مقياساً سليما فى الأدب ، وهذا فيه بعض الحق ، أما بعضه الآخر فإن لكل ناقد أن يشرع مايشاء للنقد ، والجاحظ يرى أن الأدب ينبغى أن يظل فى حدود الدين .

ومن حذر التعلق باللفظ - عند الجاحظ - الحيف على المعنى ، وفى ذلك يقول : (وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيء المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يجر المعنى جرا ، ويلزقه به إلزاقا)[2] .

وأشق ما يلقاه الأديب فى تخير اللفظ أن يضع كل لفظ فى موقعه اللائق به ، وبهذا يتفاضل البلغاء ، وقد ذكر الجاحظ أن القرآن الكريم يستعمل ألفاظاً دون ألفاظ ترادفها ، فمثلا لم يستعمل المطر إلا فى موضع الانتقام ، ولم يستعمل الجوع إلا فى موضع العقاب .... وهكذا ؟

« يتبع »

(١) البيان ج ٢ ص ٢٦٨ .
(٢) رسالة المعلمين « هامش الكامل » ج ١ ص ١٧ .

من بحوث مجمع اللغة العربية :

معجم ألفاظ القرآن الكريم

ت ر ف

(أترفناهم ـ أترفتم ـ أترفوا ـ مترفوها ـ مترفين ـ مترفيها ـ مترفيهم)

١ ـ الترف : التنعم ، يقال : ترف يترف من باب فرح ـ ترفا : تنعم . وأترفه : أعطاه شهواته وأترفته النعمة : أبطرته وأطغته ، واسم المفعول مترف .

أترفناهم : (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم) ٣٣ / المؤمنون . أى نعمناهم بألوان النعيم من المال والولد والمساكن الطيبة .

أترفتم : (لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه) ١٣ / الأنبياء .

أترفوا : (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) ١١٦ / هود ، وانظر اتبع فى مادة (ت ب ع) .

٢ ـ والمترف : المتنعم المتوسع فى ملاذ الدنيا وشهواتها ، وجمعه مترفون .

مترفوها : (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) ٣٤ / سبأ و ٢٣ / الزخرف .

مترفين : (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) ٤٥ / الواقعة .

مترفيها : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) ١٦ / الإسراء .

مترفيهم : (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) ٦٤ / المؤمنون .

ت ر ق

(التراقى)

التراقى : أعالى الصدر وهى العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال جمع ترقوة.

التراقى : (كلا إذا بلغت التراقى) ٢٦ / القيامة ، أى بلغت الروح التراقى ، وهو كناية عن قرب مفارقة الروح للجسد .

ت ر ك

(ترك - تركت - تركتم - تركتموها - تركن - تركنا - تركناها - تركه - تركهم - تركوا - تركوك - تتركه - نترك - اترك - تتركوا - تتركون - يترك - يتركوا - تارك - تاركو آلهتنا - تاركى آلهتنا) .

ترك الشىء يتركه تركا - من باب نصرك - خلاه وانصرف عنه قصداً واختيارا أو قهراً واضطرارا ، فهو تارك وهم تاركون .

وتختلف التخلية والانصراف باختلاف المقامات .

فيقال : ترك فلانا أو مذهب فلان : إذا صد عنه وانصرف .

ويقال : ترك فلان مالا ، أى مات عنه وخلفه من بعده .

ويقال : قطع الشجر وترك النخل - مثلا - أى خلاه على حاله فأبقاه .

ويقال : أجهز على أعدائه فما ترك أحداً منهم ، أى فما أبقى على أحد منهم ، وأصله فما خلّى أحداً عن الإجهاز عليه .

ويقال : ترك فى القوم أثرا ، أى خلاه فيهم وأبقاه .

وقد يضمن ترك معنى جعله على حالة ما وأبقاه عليها .

ترك : (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين) ١٨٠ / البقرة ، أى أبقى خيراً بعد موته وخلفه من بعده ، ومثلها ٢٤٨ / البقرة و ٧ « مكرر » / ١١ « مكرر » / ١٢ /

٣٣ / ١٧٦ « مكرر » / النساء . وفى قوله تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) ٦١ / النحل ، أى ما أبقى ، ومثلها ٤٥ / فاطر .

تركت : (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) ٣٧/ يوسف ، أى صددت وانصرفت عنها ، وفى قوله تعالى : (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) ١٠٠ / المؤمنون ، أى فيما تركته وانصرفت عنه من إيمان وعمل .

تركتم : (ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين) ١٢ / النساء « مكرر » أى متم عنه وخلفتموه بعدكم ، ومثلهما ٩٤ / الأنعام .

تركتموها : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) ٥ / الحشر ، أى خليتموها ولم تتعرضوا لها فأبقيتموها على حالها .

تركن : (فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين) ١٢ / النساء ، أى متن عنه وخلفنه بعدهن .

تركنا : (إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) ١٧ / يوسف ، أى خليناه ولم نأخذه معنا . وفى قوله تعالى : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) ٩٩ / الكهف ، أى خليناهم يموج بعضهم فى بعض . وفى قوله تعالى : (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) ٣٥ / العنكبوت ، أى أبقينا من هذه القرية آية بينة لمن يعتبر . وفى قوله تعالى : (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين) ٧٨ / الصافات ، أى أبقينا له هذا السلام تحية وذكرى دائمة فى الآخرين ، ومثلها ١٠٨ / ١١٩ / ١٢٩ / الصافات . وفى قوله تعالى : (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) ٣٧ / الذاريات ، أى أبقينا فيها آية .

تركناها : (ولقد تركناها آية فهل من مدكر) ١٥/القمر ، أى جعلناها آية باقية .

تركه : (فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا) ٢٦٤/البقرة أى خلاه صلباً أملس لا تراب عليه .

تركهم : (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) ١٧ / البقرة ، أى أبقاهم .

تركوا : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً) ٩ / النساء ، أى ماتوا وخلفوا بعدهم . وفى قوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون) ٢٥ / الدخان ، أى خلفوا .

تركوك : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً) ١١/ الجمعة أى خلوك قائما .

تتركه : (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) ١٧٦/الأعراف أى سواء هيجته وأزعجته بالطرد الشديد أو خليته فأبقيته على حاله لم تزعجه .

نترك : (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) ٨٧ / هود أى نفارقه .

اترك : (واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون) ٢٤ / الدخان ، أى خله منفرجا باقياً على حاله .

تُتركوا : (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون) ١٦ / التوبة أى حسبتم أن تخلوا وتهملوا ولا تبتلوا بما يمحصكم .

تُتركون : (أتتركون فيما هاهنا آمنين) ١٤٦/الشعراء ، أى أتخلون فى تنعمكم .

يُترك : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) ٣٦ / القيامة ، أى يخلى مهملا كالحيوان فلا يكلف ولا يجازى .

يُتركوا : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) ٢ / العنكبوت ، أى أظنوا أن يخلوا بلا فتنة واختبار اكتفاء بقولهم آمنا .

تاركٌ : (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك) ١٢ / هود أى فعلك متخل عن تبليغ بعض ما يوحى إليك .

تاركوا آلهتنا : (ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) ٣٦ / الصافات أى منصرفون عنها .

تاركى آلهتنا : (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) ٥٣ / هود ، أى ما نحن بمنصرفين عنها .

ت س ع

(تسع — تسعا — تسعة — تسعة عشر — تسعون)

١ — التسعة : العدد المعروف يذكر مع المؤنث ويؤنث مع المذكر منفردا ومركبا ومعطوفا .

تسع : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) ١٠١/الإسراء و١٢/النمل و٢٣ص

تسعا : (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) ٢٥ / الكهف .

تسعة : (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض) ٤٨ / النمل .

تسعة عشر : (لواحة للبشر عليها تسعة عشر) ٣٠ / المدثر .

٢ — والتسعون : العدد المعروف يستوى فيه المذكر والمؤنث .

تسعون : (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) ٢٣ / ص

تسنيم : انظر مادة (س ن م) .

ت ع س

(تعسا)

تعس يتعس — من بابى تعب ونفع : هلك : أو عثر فأكب على وجهه ، والتعس مصدر يطلق على الهلاك والعثار .

تعسا : (والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم) ٨ / محمد .

تعالى : انظر مادة (ع ل و) .

ت ف ث

(تفثهم)

التفث يكون فى مناسك الحج ، وهو ما كان من نحو قص الأظفار ، وحلق الرأس ، ورمى الجمار ، والذبح والنحر وإذهاب الشعث والوسخ .

تفثهم : (ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) ٢٩/الحج.

ت ق ن

(أتقن)

أتقن الشيء إتقانا : أحكمه

أتقن : (صنع الله الذى أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون) ٨٨ / النمل .

التقوى : انظر مادة (و ق ى) .

الأتقى واتقى : انظر مادة (و ق ى) .

ت ل ك

(تلك — تلكما — تلكم)

تلك : من أسماء الإشارة يشار بها للمفردة المؤنثة ، كما يشار بها إلى الجمع الذى يعامل معاملة المؤنث ، وهو جمع التكسير وجمع المؤنث السالم ، ويقول النحاة : إن اسم الإشارة هو (تى) واللام للبعد والكاف حرف خطاب . وحرف الخطاب يتغير تبعاً للمخاطب ، فيقال فى مخاطبة المفردة : تلك ، وفى مخاطبة المثنى : تلكما ، وفى مخاطبة الجمع : تلكم أو تلكن ، وقد تستعمل الكاف وحدها مع مخاطب واحد أو أكثر .

تلك : (تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) ١١١ / البقرة و ١٣٤ / ١٤١ / ١٨٧ / ١٩٦ / ٢٢٩ / ٢٣٠ / ٢٥٢ / ٢٥٣ البقرة ، و ١٠٨ / ١٤٠ / آل عمران ، و ١٣ / النساء ، و ٨٣ / الأنعام ، و ١٠١ / الأعراف ، و ١ / يونس ، و ٤٩ / ٥٩ / هود ، و ١ / يوسف ، و ١ / ٣٥ / الرعد ، و ١ / الحجر ، و ٥٩ / الكهف ، و ٦٣ / مريم ، و ١٧ / طه ، و ١٥ / الأنبياء ، و ٢ / ٢٢ / الشعراء ، و ١ / ٥٢ / النمل ، و ٢ / ٥٨ / ٨٣ / القصص ، و ٤٣ / العنكبوت ، و ٢ / لقمان ،

و ٧٢ / الزخرف ، و ٦/ الجاثية ، و ٢٢/ النجم ، و ٤ / المجادلة ، و ٢١ / الحشر ، و ١ / الطلاق ، و ١٢ / النازعات .

تلكما : (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) ٢٢ / الأعراف .

تلكم : (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) ٤٣/ الأعراف .

ت ل ل

(تَـلَّه)

تله يتله — من باب قتل — تلاً : ألقاه على عنقه وخده .

ويقال : تله للجبين ، كما يقال : كبه لوجهه . أى ألقاه فوقع جبينه على الأرض .

تـلّه : (فلما أسلما وتله للجبين) ١٠٣ / الصافات .

ت ل و

(تلاها ـ يتلوه ـ تلوته ـ أتل ـ أتلو ـ تتلو ـ تتلون ـ نتلو ـ نتلوه ـ تتلوها ـ يتلو ـ يتلون ـ يتلونه ـ اتل ـ اتلوها ـ تليت ـ تتلى ـ يتلى ـ تلاوته ـ التاليات) .

(١) تلا فلاناً يتلوه كسما يسمو ـ تلوًّا : تبعه .

تلاها : (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها) ٢/الشمس، أى تبعها وجاء بعدها .

يتلوه : (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) ١٧ / هود ، أى أفمن كان على بصيرة من ربه ويتبعه ويؤازره على هذه الهداية شاهد من الله أو من القرآن أو من نفسه كمن ليس كذلك .

(٢) وتلا الكتاب يتلوه تلاوة : قرأه فهو تال وهى تالية وهن تاليات .

تلوته : (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) ١٦ / يونس .

أتل : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) ١٥١ / الأنعام .

أتلو : (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا) ٨٣/الكهف ٩٢/النمل

تتلو : (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان) ١٠٢/ البقرة ، أى تقرأه فى عهد ملكه ، ويصح أن تفسر تتلو بمعنى تتبع ، فيكون المعنى : واتبعوا ما تتبعه الشياطين فى عهد ملك سليمان ، وأما الآيات ٦١ / يونس ، و ٣٠ / الرعد ، و ٤٥ / القصص ، و ٤٨ / العنكبوت فإنها بمعنى تقرأ .

تتلون : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب) ٤٤/البقرة.
نتلو : (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) ٣/القصص .
نتلوه : (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) ٥٨ / آل عمران .
نتلوها : (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين) ٢٥٢/البقرة
و ١٠٨ / آل عمران ، و ٦ / الجاثية .
يتلو : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) ١٢٩ / البقرة ،
و ١٥١ / البقرة ، و ١٦٤ / آل عمران ، و ٥٩ / القصص ، و ٢ / الجمعة ،
و ١١ / الطلاق ، و ٢ / البينة .
يتلون : (وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب) ١١٣/
البقرة ، و ١١٣ / آل عمران ، و ٧٢ / الحج ، و ٢٩ / فاطر ، و ٧١ / الزمر .
يتلونه : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) ١٢١ / البقرة .
اتل : (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق) ٢٧ / المائدة ، و ١٧٥/الأعراف ،
و ٧١ / يونس ، و ٢٧ / الكهف ، و ٦٩ / الشعراء ، و ٤٥ / العنكبوت
اتلوها : (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) ٩٣ / آل عمران .
تُليت : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) ٢ / الأنفال .
تُتلى : (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) ١٠١ /
آل عمران ، و ٣١ / الأنفال ، و ١٥ / يونس ، و ٥٨/٧٣/مريم ، و٧٢/ الحج ،
و ٦٦ / ١٠٥ / المؤمنون ، و ٧ / لقمان ، و ٤٣ / سبأ ، و ٨/٢٥/٣١/ الجاثية ،
و ٧ / الأحقاف ، و ١٥ / القلم ، و ١٣ / المطففين .
يتلى : (قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء)
١٢٧ / النساء ، و ١/ المائدة ، و ١٠٧/الإسراء ، و ٣٠/ الحج ، و٥٣/القصص ،
و ٥١ / العنكبوت ، و ٣٤ / الأحزاب .
تلاوته : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) ١٢١/البقرة ، أي قراءته.
التاليات : (فالتاليات ذكرا) ٣ / الصافات . هي جمع مؤنث من تلاه
بمعنى قرأه .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

---

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد.

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها، ولا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها.

٣ — ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن، وألا يجرحوا شعور غيرهم، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون، فإن ذلك أولى بهم، وأجدى عليهم، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم.

٤ — من المعروف أن «سياسة الحكم والحكام» كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشئون الدينية، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين، وتثبيتاً لأقدامهم، وأنهم سخروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض، وقد ذهب الحكام وانقرضوا، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية، تؤثر فى العقول أثرها، وتعمل عملها فعلينا أن نقدر ذلك، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة.

** ** **

وعلى الجملة نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار.

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : ـ

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

جـ ـ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رمضان سنة ١٣٩٢ هـ — أكتوبر سنة ١٩٧٢ م

رئيس التحرير : على السيد الجندى • مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩

قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً أو ما يعادلها

مطبعة مخيمر ت ٩٠١١٩٢